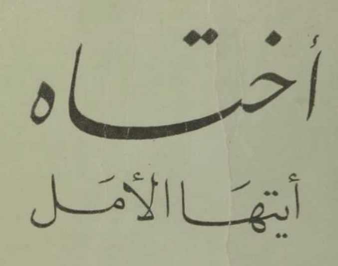


أختاه

أيتها الأمل



أحمد بدوي

مؤسسة الرسالة



الفصل الأول

الرجل والكلاب

الرجل :

قد لا أشاطرك الرأي ، ولكنني على استعداد كي أبذل حياتي ثمناً لأمكنك من التعبير عن رأيك . . .

الكلاب :

لن نشاطرك الرأي . . . وإننا سنسحق عظامك ونفقأ عينيك ونهشم رأسك ونسفك دمك كي تدفن أفكارك ونبيد عقيدتك . . .



وقفت نور أمام المرآة تنظر فيها بلهفة لتطمئن أن أناقتها
كما يجب . . . وأحاسيس القدوم على جديد مثير تملأ نفسها
بالغبطة . . . فمنذ اليوم ستكون فتاة جامعية . . . فقد نجحت
في الثانوية العامة واستحقت أن تكون طالبة في كلية الطب
البشري .

الأسرة يعمها جو من النشاط ففتاتها البكر ذاهبة إلى الجامعة
وهي تجربة جديدة للأسرة كلها . . . ونور مزهوة يتراقص
الفرح على وجهها . . . يحيطها تشجيع والدها ودموع الفرح
في عيني أمها . . . أخوها خالد ذو الأعوام الثلاثة يحوم حولها
كالفراشة ويلهج بلثغته المحببة . . . نور . . . نور . . . خذي
قلمي اكتبي فيه اليوم . . . نور ألا تستعيرين دفتري ؟ ! . .
ندى وحدها غائبة الآن فدوام المدرسة الثانوية يبدأ باكراً . . .
وعلى كل لم تنس أن تشد على يد أختها نور قبل ذهابها وأن

تذكرها أنها بانتظار سماع كل ما سيحدث معها في يومها الأول في الجامعة . . .

نور إذن هي بطلة المشهد والأضواء مركزة عليها وهي تكاد تقفز طرباً . . . وسرعان ما انطلقت إلى الجامعة . . . كانت أنفاسها تتلاحق على باب الكلية حيث منظر الفتيان والفتيات بملابسهم أشبه ما يكونون بالقادمين إلى حفل ، وكل واحد منهم يتفحص الآخرين فوجوه تبرق بالفضول . . . وأخرى خجولة . . . رفاق يتبارون بالتندر والقهقهة . . . وآخرون رزينون . . . والكل يغذ السير ليقطع خطوة في طريق الحياة الطويل . . .

مدرج المحاضرات كخلية نحل يعجّ بالطلبة الصاعدين منهم والهابطين . . . الأصدقاء القدامى يلتقون . . . التحيات تتطاير من أرجاء المدرج إلى أرجائه . . . وصداقات جديدة تنعقد . . .

جلست نور منزوية يلفها الارتباك . . . وهي تتأمل ما يدور حولها . . . مجموعات من الفتيات هنا وهناك يتبادلن الأحاديث مرحات باشات . . . ولفت انتباهها أيضاً التباين الصارخ بين الطلبة. . .فهم خليط يعكس كل ألوان المجتمع.. فبعضهم بدا وكأنه قد استورد خصيصاً لهذه المناسبة من واجهات باريس ولندن . . . ويكاد المرء يجزم أن بعض الفتيات قفزن تواً من صفحات مجلات الأزياء كما يبدو أن آخرين

يثلج صدورهم انتحال مظهر متسول هيبي أو قاطع طريق أميركي . . . وآخرون لباسهم بسيط مريح غير مبتذل ينمّ عن جدية وعدم تكلف يشعرونك أنهم أقرب إليك من أشخاص الاستعراض أولئك . . .

ثلاث فتيات أثرن انتباه نور بشكل خاص . . . إذ كن يتبادلن الحديث ويبتسمن بأدب واتزان ، وكأن رباطاً غير منظور من الألفة والمحبة يجمع بينهن . . . كن كالملائكة بلباسهن السابغ الأنيق في هذا الوسط الصاخب . . .

– عفواً يا زميلة . . . أهذا المقعد فارغ . . . أمن الممكن أن أجلس ؟ . .

بوغتت نور بالسؤال الذي قطع عليها تأملها ومزق سكونها الداخلي . . . بينما وقف قبالتها شاب غربي اللباس والمظهر ، يتكلف ابتسامة دلعة ألصقها على وجهه . كانت نبرته الغنجة ما تزال ترنّ في أذنيها وهو يتمايل أمامها كعذراء مدللة . . .

– إنه خال كما ترى ! . .

– أيزعجك جلوسي بقربك ؟ . .

نظرت إليه بضيق مستغربة ودون أن تنطق حرفاً . . . أربكه موقفها فتمتم :

– شكراً . . . شكراً . . .

وجلس إلى جانبها متشاغلاً بترتيب أوراقه . . . ولم تمضِ ثوان حتى أحست نور بنظراته اللزجة تلتصق بها . . . وكأنها تبحث عن مسرب للتغلغل منه بعيداً في داخلها . . .

– لا بد أننا التقينا قبلاً . . . أليس كذلك يا زميلة ؟ . . عفواً فأنا لا أذكر اسمك . . . ولكن أظن أننا التقينا في . . .

لم تنتظره الفتاة ليستمر في ثرثرته . . . وقالت حازمة بضيق ظاهر :

– أبداً . . . لم نلتق سابقاً أبداً . . . أنا متأكدة . . .

ورغم الصخب المتعالي في المدرج . . . شعرت نور بسكونها الداخلي يعود ليملأ أذنيها ونفسها . . . بحثت عما يمكنها أن تصف به سلوكه ذاك . . . فما وجدت سوى كلمة واحدة ملائمة . . . صفاقة . . . صفاقة . . . همست في نفسها . . . وراحت تنفث عن ضيقها بالعبث بأصابع يديها ... إلا أن المتغنج لم ييأس على ما يبدو ، فها هوذا يتنحنح ليبدأ محاولة جديدة للنفاذ باتجاه نور . . .

لاحظت إحدى الفتيات ملائكيات الوجه . . . ضيق نور وحرجها . فهمست لزميلتيها :

– عفواً أختيّ . . . لحظة وسأعود . . .

اقتربت مي بثقة من نور . . . وبابتسامة مؤدبة :

– صباح الخير . . . أين أنتِ ؟ ! . . ألا تسلمين علينا . . .
لقد حجزنا لك مقعداً في مقدمة المدرج . . . هيا . . . هيا . . .
فنحن بانتظارك . . .

فوجئت نور بهذا التعارف الصاعق . . . فتأملت وجه
مي . . . أحقاً تعرفها . . . أحقاً هذا ؟ ! . . إنها لا تذكر . . .
ولكنها رغم ذلك أحستها قريبة من قلبها . . . بل وتكاد
تمسه ، فردت حائرة :

– صباح الخيرات . . . ولكن أنا . . .

– حسناً . . . سنجلس مع صديقتينا ثم تخبريننا عن
أحوالك . . . والآن انهضي . . . فهما تنتظران . . .

طفحت نفس نور بالميل لمي بلباسها المحتشم المريح . . .
فنهضتْ واقفة .

– حسناً . . . وأين سنجلس ؟ . .

عندها ندّت من فم المتغنج « أف » ممطوطة . . . فقد
أفلتت من بين يديه فرصة ثمينة . . .

أمسكت مي بذراع نور وهما تهبطان المدرج . . .

– أنا أختك مي ويسرني التعرف عليك . . . في الحقيقة
لا تعارف سابقاً بيننا . . . ولكن ما أجمل أن تصادق الفتاة
أختاً لها في الله . . .

وبابتسامة ذكية أردفت وهي تضغط كف نور :

ــ أظن أني قد أنقذتك من موقف حرج . . . أليس كذلك ؟

ابتسمت نور موافقة . . .

ــ اسمي نور . . . وأنا سعيدة جداً بالتعرف عليك . . . بل وأشعر أنني أعرفك حقيقة ومنذ زمن طويل . . .

وبودّ كامل وبدون أي تكلف تم التعارف بين الفتيات الأربع . . . إذ قالت مي بانطلاقة وهي تشير بكفها :

ــ أختكم نور . . . نور إن شاء الله . . .

فبشّت الفتاتان :

ــ أهلاً . . . أهلاً بالأخت نور . . .

ــ أختك أمل . . .

ــ أختك رنده :

وهكذا شعرت نور أنهن صديقاتها الحميمات وكان فرح وجهها ينبىء بذلك فعبرت لهن عن سرورها قائلة :

ــ وأهلاً بكن أنتن . . . إنني مسرورة بالتعرف إليكن... وأشكرك يا مي لإتاحتك هذه الفرصة لي . . .

وأردفت كمن تذكر شيئاً يقلقه :

– ولكن . . . أعني . . . ألا تجدن حرجاً أن تصاحبن فتاة مثلي ؟ . .

وهي تشير متحرجة إلى ثيابها ، فردت رنده مستغربة وابتسامة عريضة قد قفزت من قلبها :

– وما لك أنت ! . . وما الغريب فيك حتى لا نصاحبك يا نور . . . ما هذا الذي تقولين ! ؟ . .

وما لبثت الأصوات أن تخافتت في المدرج . . . وسرت الهمسات . . . جاء الدكتور . . . جاء الدكتور . . . فاتجه الجميع إلى مقاعدهم . . . ثم دخل الدكتور . . . وقف خلف المنضدة . . . اتكأ بيديه عليها . . . وعيناه تسبر من خلف نظارتيه الوجوه الشابة المتحفزة . . . وبعد برهة تأمل ساد خلالها صمت كامل قال باشاً :

– صباح الخير وأهلاً بكم في كليتكم . . . يسرني أن يكون لقاؤكم الأول في حياتكم الجامعية معي . . . كما يسرني أن يكون لقائي الأول في هذا العام معكم . . .

سرت همهمة مرحة بين الطلبة قطعها الدكتور مردفاً :

– سندرس في محاضراتنا بعض الموضوعات في علم الحياة . . . أرجو أن تستفيدوا منها جيداً ، وقبل أن نبدأ أود أن أنبهكم إلى أهمية الموضوعات التي ستتناولها المحاضرات ، ومما يستوجب منكم اهتماماً مضاعفاً أن المعطيات العلمية

لهذا الفرع من العلوم تتعرض إلى إساءة متعمدة في تفسيرها . . .
وذلك لخدمة مواقف فكرية نحن في غنى عن التعرض لها
هنا . . . في الوقت الذي يردد فيه الجميع وباستمرار . . . أن
المنهج العلمي في البحث والدراسة يجب أن يكون سبيلاً للوصول
إلى الحقيقة . . . والحقيقة وحدها . . . تلك الحقيقة التي
حفزت العلماء والمفكرين خلال أحقاب التاريخ للبحث والبذل..
ولكننا الآن نجد من يسخّر معطيات العلوم لهوى في نفسه
أو نفوس من يملكون النفوذ والضغط عليه وذلك لغايات
أضمروها في أنفسهم . . . ضاربين عرض الحائط بالأسس
العلمية للبحث . . . وبالأمانة العلمية في الكشف والتحليل
والاستنتاج . . . ومهملين كل القضايا والمسائل التي لا يمكن
تفسيرها وفق القوالب الجاهزة التي يحشرون فيها المعطيات
العلمية قسراً . . . وأريد أن أوضح لكم كلامي بمثل عملي
عن هذا التزوير المتعمد ، ولنأخذ موقفهم من « نظرية التطور
لداروِن » مثالاً . . . إنهم يريدوننا أن نؤمن اليوم أن « نظرية
داروِن » قانون ثابت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه . . . حسناً فلنرَ ما هي القيمة العلمية لهذه النظرية بعيداً
عن كل تعصب وتحزب :

أولاً ، ترُى ماذا قال داروِن بالذات عن نظريته ؟ . .
هل اعتبرها قانوناً ثابتاً أم مجرد افتراض ؟ . . إن من يرجع
إلى كتابه « أصل الأنواع » الذي عرض فيه أفكاره يجده

لا يفتأ يذكرنا أن ما يعرضه ما هو إلاّ أفكار مطروحة للنقاش وقابلة بالتالي لإعادة النظر . . . ليس هذا فحسب بل وراءه يقرر أن الكثير من الحقائق ومن الأسئلة التي تطرحها علينا مشاهداتنا في الطبيعة لا يمتلك هو أي داروين كما لا تمتلك نظريته أية إجابة عليها أو تفسير لها . . بل إن داروين نفسه طرح بعض تلك المسائل . . . وهذه واحدة منها على سبيل المثال . . . قال داروين :

« . . . لقد عثر على هياكل لحيوانات عاشت في الزمن السابق للعصر الجليدي ولدى مقارنتها مع أحفادها الموجودة اليوم تبين أنها لا تختلف البتة عن أسلافها السابقين الذين عاشوا في ذلك الزمن الغابر » . . .

إننا نتساءل إذاً أين التطور ! ؟ . . أين ذلك القانون القاهر الذي يزعمون أنه يخضع الكائنات الحية بكاملها لسطوته وقهره ؟ ! ! . لِمَ لَمْ ينفذ تأثيره على تلك الأنواع من الحيوانات ؟ ! . . الجواب لم يجده أنصار داروين . . . وحتى داروين صاحب النظرية نفسه لا يجد أمام هذا الإشكال المناقض لنظريته بدأً من أن يعترف قائلاً :

« . . . إن مما يضاد بديهية العقل أن نحاول الإجابة على هذا السؤال وأمثاله إجابة بينة إذا ما قدرنا مبلغ جهلنا بتاريخ كل نوع من الأنواع » . . .

صمت الدكتور لحظة أجال خلالها نظراته الهادئة والثاقبة بين الطلبة الذين راحوا يتنفسون براحة ويطلقون أنفاسهم الحبيسة . . . كمن كان يتابع مشدوهاً أمراً مثيراً استغرقه كلية . . . وأخيراً وصل إلى نتيجة ، لاقت ارتياحاً في نفسه . . .

خطا الدكتور خطوات واثقة ، ثم انطلق بصوته الجهوري ذي النبرات الواضحة والحادة :

– من يعترف بالجهل يا أبنائي فيما يريدنا أن نتابعه عليه أيستحق منا أن نتبنى أفكاره . . . بل وأن نعتبر افتراضاته المبنية على الجهل . . . قانوناً لا نحيد عنه . . . يا أبنائي إن جاز هذا وجب أن نتخلى عن عقولنا وإراداتنا . . .

وأضاف ممتعضاً :

– وإني لأحسب أن هذا ما يريدونه منا . . . وإنني لواثق أنهم لن يرضوا بأقل منه . . . هذا إن استطاعوا . . . على كل لقد مضى العلم في تسارعه المبارك بعد دارون وخلفه وراءه . . . وهكذا اكتشفت (الصبغيات) . . . وأصبحنا نعلم أن هناك تركيباً خاصاً مبثوثاً في كل خلية من خلايا كل كائن حي . . . وهذا التركيب نوعي ويضمن لكل نوع من الكائنات الحية استمرار صفاته النوعية المميزة فيضمن بالتالي الحفاظ على النوع كما هو مهما تقادمت به الأزمان . . .

وربما تتساءلون . . . هل سلمت هذه المعطيات من التزييف

والخــــداع ؟ . . وهل أقرّ المستفيـــدون من فرضية دارون بالهزيمة ؟ . . أبداً . . . فحتّى الآن هناك من يزعمون أن التطور قانون حق ولكنهم يقدمون أسلوباً آخر لتفسير التطور بعدما تهاوى منطقهم الأول بسبب التقدم العلمي واكتشاف (الصبغيات) . . . فزعموا أن قائد التطور ومنهجه إنما هو (الطفرة) . . . وقالوا إن الأنواع الجديدة المتقدمة بزعمهم إنما ظهرت من الأنواع السابقة لها بسبب تراكم الطفرات . . . والتي هي عبارة عن تغيرات في التراكيب الصبغية تحدث بسبب عارض وعشوائي . . .

ابتسم الدكتور منتصراً وتابع موضحاً :

— الحمد لله يا أبنائي فإن العلم لا يحابي أحداً . . . ولن يوقف سيره نزولاً عنـــد رغبة بعضهم . . ومرة أخرى نجد أوهام المبطلين تسحق تحت عجلة التقدم العلمي الجبارة . . . فمخابرنا العلمية قادرة اليوم على إحداث طفرات تجريبية . . . حسناً فهل حصلنا إذاً على أي نوع جديد ؟ . . أبداً . . . أبداً . . . فالطفرات التجريبية التي أحدثت في المخبر على حشرة (ذبابة الفاكهة) مثلاً . . . لم تعط نوعاً جديداً إطلاقاً . . . بل إن الغالبية العظمى من الطفرات هي من النوع المميت . . . وبشكل عام فان الطفرات غير المميتة الباقية تضعف قوة الفرد وتؤدي إلى تكوين حشرات أقصر عمراً وأقل قدرة على الحياة . . .

أنهى الدكتور جملته الأخيرة بزفرة طويلة رسمت في مخيلة نور صورة لرجل مقيد اليدين ومكمم الفم استطاع بعناء شديد مغافلة آسريه ليبوح بأمر خطير طالما أثقل كتمانه على ضميره وعذبه . . .

ثم افترّ فم الدكتور عن ابتسامة حزينة . . . حزينة . . . جزمت نور أنها مغمسة بالقهر مما أورثها قلقاً مبهماً انساب في عروقها ليصل كل خلية فيها . . . ورنت كلمات الدكتور متعاطفة :

– طبعاً أنا لا أريد أن أثقل عليكم في المحاضرة الأولى. . . ولكنني أشعر بعذاب بالغ . . . فما تسمعونه الآن هو بالتأكيد مخالف لما ألفتم سماعه على مقاعد الثانوية . . . وللاسف فهو مخالف أيضاً لما ستسمعونه في حياتكم الجامعية . . . ويشتد عذابي عندما أتذكر أني مضطر لتدريسكم وامتحانكم بأمور أنا موقن بخطئها . . .

ثم تابع بأسى وهو يصارع آلاماً عميقة :

– الإنسان يا أبنائي ليس آلة تسجيل تحشوه بما تشاء ثم بإشارة من أصبعك ترغمه أن يردد لك ما تهواه . . . وعندما يجبر المرء أن يقوم بدور المسجل فصدقوني أنه سيعيش صراعاً مريراً . . . صراعاً رهيباً حتى مع نفسه . . . وستلاحقه أنفاسه . . . وتتهمه مع كل شهيق وزفير صارخة . . . خائن . . . خائن . . . خائن . . .

بلغ التأثر مداه في نفوس الطلبة وخاصة عندما برقت دمعتان عزيزتان من خلف نظارتي الدكتور . . . الذي شاع صوته الواثق في المدرج من جديد :

– والإنسان . . . ماذا عن الإنسان أيضاً . . . كانوا يخمنون أن الإنسان وجد على سطح الأرض منذ مليون من السنين . . . ولكن آخر الأبحاث العلمية خذلت توقعاتهم إذ دلت على أن الإنسان بشكله الحالي قد وجد منذ ثلاثة ملايين من السنين على الأقل . . . وكل عاقل يتساءل وأين غاب التطور ! ! . . سواء بطريقة الاصطفاء أو بأسلوب الطفرات خلال هذه الآماد السحيقة من الزمن . . . لِـمَ لمْ تمتد يد التطور إلى الإنسان طوال هذه الملايين من السنين ؟ ! ! . طبعاً لا إجابة لديهم . . .

بل وإننا لنتساءل لِـمَ لمْ يشمل التطور – ما دام هو قانوناً شاملاً – كل الكائنات الدنيا بحيث تختفي الأنواع الدنيا ولا نعود نجد سوى الأنواع الأرقى والأعلى ؟ ! ! .

لِـمَ لم يطبق قانون التطور على الجميع ؟ ! . .

ولِـمَ نسي هذه الكائنات الأدنى تعيش وترتع في كوكبنا ؟ ! . . بل وليس هناك حتى إشارة إلى أن هذه الأنواع في طريقها للانقراض فضلاً عن التطور . . .

تابع الدكتور محاضرته . . . وإن أثر كلامه ليلاحظ في

استراق الطلبة النظر إلى المئذنة الشامخة للمسجد القريب من الكلية والتي تلوح من وراء زجاج النافذة . . . كانت النظرات تتأمل المئذنة بشغف واع وكأنها تعانقها وتسعى للاندماج بها . . .

• • •

انتهت محاضرات اليوم الأول . . . وخرجت فتياتنا من المدرج بحيوية تنبيء عن عزم مكين . . . قالت مي مداعبة :

– تهانينا أيتها الطبيبات . . . لم يبق لتخرجكن سوى ست سنوات تنقص يوماً كاملاً . . . ردت صديقاتها بابتسامة صاخبة . . . واستدركت أمل ضاحكة بأدب وهي تتصنع الامتنان :

– آه . . . وشكراً لك أيتها الأخت الطبيبة على هذه البشارة التي غفلنا عنها . . .

وهكذا مضين في طريقهن إلى بيوتهن وهن يتبادلن التعليقات والملاحظات حول ما جرى في ذلك اليوم الذي ولجن منه إلى مرحلة أغنى من حياتهن . . . وبسرعة نمت بينهن صلة قوية بلا تكلف . . . وعرفت نور أثناء الكلام أن صداقة مي ورندة وأمل تمتد إلى سنوات خلت منذ مرحلة الدراسة الإعدادية ، كما كانت تجمعهن علاقة الجوار في حيّ واحد قبل انتقال أسرة مي إلى الطرف الآخر من المدينة ،

حيث قطنت في منطقة لا تبعد سوى مسافة بسيطة عن منزل أسرة نوز . . . وأكد هذا الإكتشاف السار لمي ونور أن علاقتهما لن تكون عابرة . . .

وقبل أن تفترق الصديقات دعتهن أمل لزيارتها بعد عصر ذلك اليوم ، حيث ستقيم لهن حفلة بسيطة بمناسبة بدء دراستهن الجامعية . . . وافقت رندة دون تردد . . . كما قبلت مي الدعوة وأبدت تشوقها للقاء صديقاتها الأخريات اللواتي عاشت ودرست معهن حين كن جارات لها في حارتها القديمة . . . فأخبرتها أمل أنها قد دعتهن أيضاً . . .

أخرجت أمل نوراً من صمتها وسألتها عاتبة :

– وأنتِ يا نور ما بالكِ صامتة ؟ . . يجب أن تحضري حفلتنا وسيسرنا جميعاً وجودك بيننا . . .

– كم أود ذلك يا أمل . . . ولكن لا بد من استئذان والديَّ أولاً . . . ثم إني لا أعرف عنوان منزلك . . .

– بالتأكيد يجب أن يطمئن والداك ويعرفان أين ستمضين وقتك . . . ترى ما رأيك يا مي ؟ . .

ولما التقت عينا نور بوجه مي الطاق سرى في روعها أن هذه الفتاة لا بد أن تملك لكل مشكلة حلاً . . . جاء جواب مي :

– أمر في غاية البساطة . . . سأستدل من نور على منزلها

الآن . . . ثم أعود قبل الحفلة بساعة فأزورها وأتعرف إلى والدتها بهذه المناسبة .

ثم غمزت نوراً باحدى عينيها وتابعت :

– وأظن أن مظهري سيطمئن والدتك أنك ستكونين بصحبة أمينة . . .

ودّعت مي ونور صديقتيهما على أن يلتقين الساعة الخامسة في منزل أمل ، وفي الطريق تزاحمت الخواطر في نفس نور... فأفراد أسرتها ينتظرونها بشوق لتحدثهم عن يومها الأول في الجامعة . . . فكرت نور . . . ومن أين ستبدأ ؟ . . ستحدثهم عن صديقاتها الرائعات . . . ولا بد أن أختها ندى ستسألها عن الفارق بين المدرسة الثانوية والجامعة . . . آه . . . ندى ... ترى كم ستكون ندى سعيدة لو أن لها صديقات كصديقاتها... نعم . . . نعم . . . فندى بحاجة لصديقة كمي . . . لا . . . لا . . . مي أكثر من صديقة . . . إنها أخت . . . بل وأخت عظيمة. . . ربّاه ما أحدّ ذكاءها . . . وما أشد ثقتها بنفسها .. إنها تفيض اتزاناً وودّاً . . . ورندة . . . وأمل . . . آه . . . يا لعظيم غبطتها فهي لن تكون وحيدة بين مئات الطالبات والطلاب . . . بل سيكون لها صديقات رائعات بأدبهن ووعيهن . . . إنها تفخر بهن . . . ولكن ترى ما شعورهن نحوها ؟ . . إنها لا تستطيع أن تحدد بدقة . . . ولكن من الواضح أنهن يعتبرنها واحدة منهن . . . وإلاّ لما أشركنها في

أحاديثهن الخاصة . . . ولما اهتممن بها هذا الاهتمام كله . . . بل ولما شددن عليها حتّى تلبي دعوة أمل . . .

هنا تملك نوراً إحساس غامض بالانقباض . . . ترى ألن يعارض والدها هذه الزيارة لصديقة لم تتعرف عليها إلا منذ ساعات فقط ؟ . . ووالدتها هل ستسمح لها . . . آه . . . كيف تستطيع إقناع والديها بألاّ خوف عليها مع أولئك الفتيات ؟ . . إنها متأكدة أن والديها سيسران كثيراً . . . بل وكثيراً جداً لو صادقت ابنتاهما فتيات حليتهن الخلق القويم والمسلك العطر . . . ولكن كيف ستقنعهما أن صديقاتها هن فعلاً كذلك ؟ . .

سألت مي نوراً وهما تلجان الشارع الرئيسي :

– نور . . . هل سنقطع الطريق صامتتين . . . أين وصلت بك أفكارك ؟ . .

– وأنت يا مي . . . أما كنت تفكرين بأمر ما ؟ . .

– نعم يا أختاه . . . أنا متألمة وحزينة . . . إنني لا أستطيع حجب موقف دكتور علم الحياة من مخيلتي . . . فقد أورثني شعوراً بالضيم ما استطعت الفكاك منه . . .

– ولِمَ يا مي ؟ ! . لقد كانت محاضرة ممتعة . . .

– بل وقيمة أيضاً . . . ولكنني متألمة لموقف الدكتور

الحرج . . . أما رأيته يحترق قهراً وهو يعتذر آسفاً لاضطراره تدريسنا ما لا يتفق لا مع المعطيات العلمية ولا مع قناعاته . . . لا يؤلمني يا نور مثل الإحساس بالقهر سواء بنفسي أو بالآخرين.. آه يا أختاه . . . ما أوجع أن تتيقني أنك على الحق النقي . . . بل وأن تتضح الحقيقة أمامك وضوح الشمس في رابعة النهار... ثم تجدي نفسك مكبلة بل ومجبرة على الهتاف مع القطيع صباح مساء أن اللبن أسود اللون . . . لقد كدت أبكي يا نور . . . كدت أنفجر عندما طفرت دموع الدكتور . . . فقد أحسست أني أعيش قصة أصحاب الأخدود .. . وكيف أحرقهم الطاغية أحياء . . . الطاغية صاحب القوة والعسكر يفتك بالمستضعفين العزّل . . . يبطش بالأبرياء . . . بالنساء . . . بالحوامل . . . بالأطفال . . . لماذا . . . أتعلمين لماذا ؟ . . ألأنهم قاتلوه ؟ . . أبداً . . . أبداً . . . وما ثاروا عليه . . . ولكنهم فقط اعتقدوا بما لم يسمح به . . . فهاج جنونه . . . القهر قهر يا نور . . . والطاغية طاغية مهما استدار الزمان وتغيرت أنماط الحياة . . . الطاغية لا يحتمل أن يفكر إنسان بعقله . . . بل يريد الناس قطيعاً من المصفقين والمهرجين. . .

همست نور مهونة من انفعال مي :

— مي . . . كفى أرجوك . . . إنك تبكين فعلاً . . .

أكملت الفتاتان طريقهما صامتتين إلى أن وصلتا منزل نور ، فتعرفت مي على المنزل تماماً ، ثم ودعت صديقتها

على أن تعود فتزورهـا في الساعة الرابعة لتذهبا معاً لتلبية دعوة أمل . . . هـذا إن وافقت والـدة نور على ذهـاب ابنتها . . .

• • •

صعدت نور سلم العمارة مسرعة وأنفاسها تتراكض ، فهي متلهفة لتقص كل شيء على أهلها . . . ولا بد أنهم هم أيضاً ،تشوقون لمعرفة ما يمكن أن يتم في اليوم الجامعي الأول من حياة ابنتهم . . .

وما أن دخلت المنزل حتّى هرعت فرحة إلى والدتها التي فتحت لها ذراعيها وضمت رأسها ودموع ضاحكة تتسلل من مقلتيها . . .

– عدت يا ابنتي ؟ . . لله الحمد . . . فقد قُرَّت عيني بك يا حبيبتي . . .

لحظة واحدة وكانت الأسرة قد اجتمعت حول نور . . . ندى تمسك بيدها وتصرف وجهها نحوها لتخبرها بكل التفاصيل كما اتفقتا صبـاحاً . . . وأخوها خالد ذو الأعوام الثلاثة ألقى برأسه عليها وهو يردد . . . دادا نور . . . دادا نور . . .

كل هذا والأم ما تزال تحتضن ابنتها ، فكم هي فخورة بما حصلت ابنتها من علم ودرجة اجتماعية ، وبذلك المستقبل

الذي بدأ يلوح لها . . أمسكت نور أمها وأغرقتها بالقبلات ...
فيا لها من فتاة سعيدة . . . إلى هذا الحد هي محبوبة من أسرتها ؟.
وأمها هذه المرأة العظيمة أية قوة تلك التي كانت تدفعها
لترعاها طوال ثمانية عشر عاماً وقبل تلك الأعوام الكثيرة
كانت هناك تسعة أشهر صعبة . . . ورغم كل شيء فهي
ما ملت رعايتها صغيرة ولا كبيرة . . . فاضت نفس نور
بالحب لأسرتها وتمنت لو تغمرهم جميعاً في بحار لا متناهية
من الفرح . . .

قصت نور على والديها وندى كل شيء . . . إلا أنها
نسيت وربما تناست ذلك الآفة المتغنج . . . تكلمت عن الطلبة..
والمحاضرات . . . واستفاضت عن ذلك الدكتور الذي لا يريد
أن يكون خائناً . . . وبدا وكأنها لن تكف عن الإسهاب
بوصف صديقاتها الجديدات . . . كأنها ما ذهبت إلى الجامعة
إلا لتتعرف عليهن . . .

وما أن انتهت نور من حديثها حتى طلبت أمها منها أن
تقوم لترتاح . . . بينما ذهبت هي إلى المطبخ لتكمل إعداد
الغداء فقد اقترب مجيء الأب . . .

أبدلت نور ثيابها . . . وشمرت عن يديها لتساعد أمها . . .
وكانت تعمل وهي تجيب عن استفسارات ندى التي لا تنتهي ...
فكانتا تتكلمان وتضحكان . . . والأم تشاركهما بهجتهما
ابتسامة مشجعة . . .

وفجأت تذكرت نور أملاً ودعوتها ... فوضعت الأطباق من يديها ، واقتربت من أمها ، وبشيء من الرجاء ...

– ماما ... إحدى صديقاتي اللواتي تعرفت عليهن اليوم ... قد دعت صديقاتها لزيارتها اليوم ...

ثم أمرّت يدها على كتف أمها مستعطفة ..

– لقد دعتني أيضاً ... أعني ... ما رأيك يا ماما ؟ . .

ارتسمت على وجه الأم ظلال من الخوف ... وجمدت كلمة مخنوقة في حلقها ... وبقيت (لا) مكتومة تتجلجل في صدرها ... مرت برهة صمت ساد الأم فيها شعور من يرى عزيزاً كنفسه يغرق في مياه كدرة ... فمن تراها تلك التي دعت ابنتها ... ولأي شيء دعتها ؟ . . لا ... لا ... لن ترسلها ... فهي لا تريد التفريط بها ... فهي أغلى عليها من نفسها التي بين جنبيها ...

وبصوت مستعطف قطعت نور الصمت :

– ماما تمهلي ... أرجوك ... فلو رأيت صديقاتي الجديدات لما مانعت أبداً ... أرجوك يا ماما لا تحكمي مسبقاً... ستأتي مي لزيارتنا اليوم ....

– حسناً يا ابنتي سأتمهل ... أما الآن فقد حان قدوم والدك ...

وأردفت بزفرة جارحة وهي تسكب الطعام في الطبق . . . حماكما الله يا ابنتيّ . . .

ولم تستطع الأم إخفاء انفعالاتها فقد اكتسى وجهها بوجوم مطبق . . . يا ربّ حفلة جامعية ومنذ اليوم الأول ! . . تذكرت ما يقال عن تلك الحفلات المختلطة وما يدور فيها من إسفاف . . كانت كل خلية في وجهها تصرخ . . لا . . لا.. نور وندى عيناي ولن أتخلى عنهما لهذا المجتمع المجنون . . . هذا الوحش الماجن والماكر . . .

وما لبث الأب أن عاد من عمله . . . وما كان هو الآخر ليضنّ بشيء من الحنان عن أولاده. . . إلاّ أنه حنان هادىء بلا دموع أو شهقات . . . بل وفاجأ نوراً بهدية جميلة . . . ساعة أنيقة . . . لتضبط لها الدقائق . . . فما من شيء أغلى من الزمن للإنسان . . . فهو يبني أهدافه خلال ثوانيه . . . ويصحح أخطاءه في حدود دقاته الصارمة . . .

التمّت الأسرة حول مائدة الطعام . . . وكانت نور تستغل فترات الصمت لتعيد أحداث يومها على أبيها الذي بدا مهتماً تماماً . . . وكثيراً ما سبقتها ندى لتخبر أباها ببعض الأمور . . . مثلاً :

ــ أسمعتَ يا بابا لقد أصبح لنور ثلاث صديقات رائعات وفي يوم واحد . . . بل وتقول نور إنهن أندر في زماننا من أشجار التفاح في صحراء الربع الخالي . . .

فيشد انتباهه ويلتفت إلى نور مستفهماً وقد تساق حاجباه إلى أعلى جبينه . . . فتنشط نور لتجلي له الأمر بحيوية ، حتى لتكاد تغص بلقمة ما تزال في فمها . . . وكأنها تسعى لدفع أبيها ليمسح آثار الطعام عن فمه ويضع ملعقته على طرف الصحن ويقول لها بصوت عميق وهو يهز رأسه . . . هذا عظيم يا ابنتي . . . هذا عظيم . . . أوصيك يا نور ألا تبتعدي عنهن أبداً . . . فنعم الصديقات هن . . . بل وحبذا لو تزورينهن . . . ويا ليتك دعوتهن اليوم إذاً لكانت فرصة جميلة تتوثق فيها صداقتكن . . . وخاصة وأن دراستكن لم تبدأ بعد . . .

إلا أن الأم لم تترك له مجالاً حتى ليهز رأسه . . . إذ ابتدرته بلهجة لا تخلو من الإيحاء وهي تتصنع الحياد وتتظاهر بأنها تترك الأمر له ليقرر ما يشاء . . .

– اسمع يا أبا خالد . . . نور مدعوة اليوم إلى منزل إحدى أولئك الفتيات اللاتي لم تتعرف عليهن إلا منذ بضع ساعات فقط . . . وهي تريد استئذانك . . . فأنت أبوها وهي ابنتك . . . فلم أتدخل بينكما ! . . ولكن تصور يا أبا خالد أنها لا تعرف حتى عنوان منزل تلك الفتاة . . . سوى أنه في الطرف الآخر من المدينة . . .

رشفت بعض الماء ووضعت الكوب . . . والجميع ما زالوا صامتين . . . ثم أخذت قطعة من البندورة وقربتها من

فمها وقالت كمن تخاطب نفسها وعيناها مركزتان على قطعة البندورة :

– هيه . . . يا سلام . . . حفلة جامعية ومنذ اليوم الأول.. فلننتظر اليوم الثالث أو الرابع لنرى العجب . . .

أدرك الأب غرضها . . . ولكن ترك ابنته تشرح وجهة نظرها . . . التي تلخصت بأن ليس كل ما في الجامعة فاسداً وأن والدتها لو رأت صديقاتها مجرد رؤية لغيرت نصف تصوراتها . . . ولو جلست معهن ولو لمرة واحدة لغيرت تصوراتها كلية . . . ولثبت لها أن الخير والشر موجودان في كل ساحة . . .

تنحنح الأب . . . وقال مخاطباً نوراً وهو متجه بوجهه إلى زوجته يقدم لها فنجان الشاي :

– نعم . . . أينما وجد الإنسان وجد الصراع بين الخير والشر لينتصر أحدهما في النهاية . . . وطالما ستتعرف أمك على صديقتك اليوم فبامكانها إن اطمأنت لها أن تأذن لك . . . والآن ألن تدعوا أباكم المرهق يرتاح قليلاً ؟ . .

ثم قبّل رأس خالد القابع في حضنه وداعبه وهو يربت على خديه الممتلئين :

– وأنت يا خالد ما حال ألعابك . . . هل قتلت اليهود بمسدسك ؟ . .

فخلص خالد رأسه من يدي أبيه وركض ليعود بمسدسه ، ويري والده كيف سيقتل به كل الأعداء . . .



الفصل الثاني

ثورة ثقافية في عام واحد

قال صلى الله عليه وسلم :

« ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم . . . وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ . . والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة » .

. . . .

فقالوا : أمهلنا سنة . فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) .



لم تتمالك الأم عندما رأت مياً – التي جاءت حسب الموعد تماماً – من إرسال تنهيدة تعجب اتبعتها بهمسات مندهشة :

– ياه . . . ما هذا اللباس الرائع ! . . لمَ لا تلبسين يا نور مثل صديقتك ؟ . . إنه محتشم . . .

حيّت مي والدة صديقتها بأدب جمّ ، ولكن دون أي شيء من خجل الأطفال . . . وأحست الأم بالندم لأنها تسرعت فركبت في ذهنها صورة مغايرة تماماً لما تراه أمامها الآن . . . وكانت مي تطفح وداً وإلفة مما جعل نوراً أحرص فأحرص على صداقتها الجديدة التي بدأت تكشف لها حاجتها الملزمة لمثلها . . .

دعت مي أم خالد لزيارة والدتها التي أرسلت بتحياتها لأم خالد وتبلغها بأنها ستستغل أول فرصة لزيارتها . . .

وبدت بهجة الأم واضحة . . . بحديث مي الهادىء والذي تنفذ كلماته النقية لتستقر في القلب وتملأ العقل . . . وبذلك

الوجه الذي يفيض طهراً وسكينة . . . فغُسلت من نفسها
ظلال قاتمة لمجرى تيار آسن من القاذورات . . . مندفع بصخب
إلى مستنقع مملوء بالثعابين المرقطة . . . والآلاف الكثيرة
من الفتيات قد غطين أعينهن بأيديهن . . . وسددن آذانهن
بأباهمهن . . . وهن يتقاذفن في تيار النتن الجارف . . .
وضحكاتهن الباكية تسحب على النفس ظلاماً بائساً . . .

لطالما أرقتها تلك الهواجس المرعبة التي تكاملت في مخيلتها
مما كانت تسمع وترى عن الفساد ذلك التنين الفتاك الذي
ينفث الضباب ليغش البصائر والعقول . . . وخاصة وأنها
كثيرة تلك الأيدي المقيتة التي ما تبرح تحقن ذاك التنين
بالمقويات وتجهد لسحق ما قد يعيق تدميره . . . همست
الأم في نفسها . . . ولكن ها هي مي منارة سامقة تبدد الظلام
من حولها كما يبدو . . .

وهكذا انتصبت في مخيلة الأم منارة شامخة يتكسر الموج
بائساً عند أقدامها . . . ولكن نورها ينفذ بهدوء وبلا ضجيج...
رويداً . . . رويداً حتى أغوار النفس . . . همست . . .
نعم . . . فلن يُعدَم الخير الأنصار . . .

أما ندى فكانت كالمسحورة تتابع كلام مي بتعطش . . .
تبتسم لابتسامتها . . . وتنفعل مع إشارات يديها . . . فكرت . . .
ياه . . . كم كنتِ حمقاء يا ندى . . . أكنت تتصورين أن
الجلباب بهذه الأناقة ؟ . . بل أو كنتِ تتصورين أن يحتضن

هذا اللباس البديع قلباً بهذا الصفاء ؟ . . أو عقلاً على هذا القدر الرفيع من الذكاء . . . وهذا الرأس الصغير الذي يحنو عليه الخمار حنوّ الأم على وليدها أكان يدور في خلدك عظمة ما يحمله من أفكار ؟ . .

قامت ندى من مقعدها وجلست بجانب مي . . . وهمست وهي تضغط مرفق مي . . .

– مي . . . ليتك كنت أختاً لي . . .

فردت مي بصدق :

– بل إننا أختان حقيقة يا ندى . . . أوليس المؤمنون إخوة ؟ . .

نظرت الأم إلى الساعة وقالت منفعلة :

– هيا . . . هيا . . . يا ابنتي وإلاّ فاتكما الوقت . . . يجب ألاّ تتأخرا . . .

هبت نور فرحة وقبلت أمها . . . فقد أذنت لها إذاً . . . كما لم تتردد الأم فأذنت لندى أيضاً بمرافقتهما عندما سألتها مي ذلك . . .

* * *

رحبت أمل بمي ونور وندى . . . وتم كل شيء بدون تكلف . . . كان أثاث المنزل بسيطاً ينم عن ذوق وعناية . . .

وكل شيء نظيف ومرتب مما يبعث الانشراح في النفس. . .
لم تكد الساعة تقارب الخامسة حتى كانت المدعوات قد اجتمعن..
كن إحدى عشرة فتاة . . . خمس منهن برفلن في الثياب
اللائقة بإنسانية المرأة وكرامتها . . . فما أليق الجلباب للفتاة . . .
إن هي إلاّ دقائق وانتظمت قلوب الفتيات بحبل وثيق من
الإلفة . . . وحدّث بعضهن بعضاً عن كل شيء . كن يتحدثْن
ويضحكن ببراءة . . . تكلمن عن أنفسهن وأمانيهن . . .
وعن أسرهن . . . وعما يحببن ويكرهن وكلما مرت لحظة
جديدة زادتْهن صلة واندماجاً . . .

توجهت أمل إلى نور :

– أرجو يا نور أنكن لم تلقين صعوبات في الوصول
إلى هنا . . .

– لا أبداً . . . فمي تعرف العنوان بالضبط . . .

نصبت فاتن ظهرها وهي تشير بسبابتها . . .

– أما أنا فرغم أنني أعرف العنوان . . . فقد مررت
في الطريق على ما يبعث التقزز . . .

انتبهت الفتيات جميعهن ونظرن إليها مستفهمات . . .
فألقت بجذعها إلى الأمام وأشارت نحوهن قائلة :

– بل وإنني لأجزم أن ما صدمني . . . صدمكن أنتن
أيضاً . . . أما أجَّج قرفكن تلك الحركات البذيئة من التافهين

المنسلخين عن المروءة والمتجافين من مكارم الشيم ؟ . . فصار افتخارهم منحصراً بكلمات سفيهة أو حركات رخيصة . . . يا لهم من وضيعين . . . إنهم كالذباب ما يفتأ يطن في الأذر وينشر الأقذار والأمراض . . . ووالله إنهم لأحقر من الذباب.. فالذباب يقوم بما فطر عليه . . . أما هؤلاء فقد تنكروا لما خُلقوا له من غايات رفيعة . . . وأبوْا إلاّ التشبه . . . بذباب... ثم يا أخواتي أما حيركن ذلك التناقض المفسخ للمجتمع . . . ففي الشارع الواحد هناك مسجد وخمارة . . . وفي العمارة الواحدة هناك تقوى وفجور . . . بل وفي الوقت نفسه يمتحن الطلبة في الكفر والإيمان . . . أي تجانس هذا وأي [illegible] ار . . . وهل تستطيع عربة أن تسير منتظمة إن جرّتها قوة ما إلى الأمام في الوقت الذي تسحبها فيه قوة أخرى إلى الخلف ؟ ! . هذا إن لم تتحطم هذه العربة متناثرة مزقاً وأشلاء . . .

تحفزت رندة وقالت محتدة :

ــ أمّا أنا فأقطع طريقي حائرة . . . فمن منا لا تسمع صباح مساء بما يكاد لأمتنا من دسائس ومؤامرات . . . فإذاعة تحذرنا من مخطط ينفذ لسحق إرادة الشعب وتصفية قضاياه واستلاب ثرواته . . . وإذاعة أخرى تصرخ منذرة أن الأعداء قد جردوا سيوفهم لذبحنا . . . وصحيفة تطلب منا التهيؤ لصد عدوان غاشم مرتقب عن أراضينا . . . ولكنني عندما أسير في الشارع أتساءل أهذا هو الشعب الذي يراد منه أن يتصدى ! . .

أو بمثل هذا الجو العام سنسحق المؤامرات ونسترد الثروات المنهوبة والأراضي المغتصبة ... أمْ أن هناك من يسعى لتخديرنا بحفلة خلاعة ومجون تعم المجتمع لتحويله إلى ملهى كبير ... تؤجج الشهوات في نفوس أفراده ... فيتلاشى ما شُحنوا به قبل قليل عن تلك اللحظات التاريخية التي تعيشها الأمة ... ويبقى في نفوس الناس التمزق والتناقض ليمهدوا للاستسلام واللامبالاة ! ! ..

فمن يمشي في الشارع سيجد على الطرف الأيمن صورة ماجنة وإعلاناً لحفلة ليلية ... وعلى بعد خطوتين لافتات تدعو لحضور حفلات غنائية لمطربي ومطربات الشباب ... وفي منتصف الساحة تنتصب الإعلانات عن العروض الفنية للفرقة الفلانية التي تضم خمسين راقصة ... والفرقة العلاّنية التي ستتحف أبناء الشعب الكادح بآخر ما توصل إليه فن الابتذال الرخيص ... فضلاً عن التهتك المذل لأفلام السينما وفتكها بالأخلاق والحياء ... ثم هناك تفشي المجلات الساقطة التي تصور الانحراف والرذيلة كأمر لا غنى عنه للفتاة العصرية والشاب المثقف ...

ثم أجالت بصرها في صديقاتها اللواتي كن مشدودات لكلامها تماماً ... وأضافت بحرقة :

ــ هذا ما يجري ... فما رأيكن بتفسيره ؟ .. أما أنا فمتأكدة تماماً أن ما نحن عليه لا يبشر بخير إن استمرت

أوضاعنا على ما هي عليه . . . ويجب أن نتذكر دوماً أن أعداءنا ما تمكنوا من بلادنا وثرواتنا إلاّ بعد استيلائهم على عقولنا وأفكارنا وشحنهم نفوسنا بالتافه من التصورات والدوافع . . . .

حطمت فدوى الدهشة المتجلدة على وجهها وقالت بحزم :

— رغم أنها المرة الأولى التي أسمع فيها فتيات في عمرنا ويهتمن بمثل هذه الأمور . . . ومع أنني ومنذ ساعة فقط كنت أبعد الناس عنها غير أنني أتساءل الآن ما قيمة هذا المجتمع الذي يرضى للانحلال والاضطراب، أن يسودا فيه ؟ ! . وأي مجتمع هذا الذي يجبر فتياته ليتهتكن وشبابه ليتسكعوا ؟ ! . أعترف أني خجلة الآن من سطحية أفكاري . . . وأشكرك يا رندة لدعوتك إيّاي اليوم . . . فقد فتحت لي سبيلاً عظيماً . . . وإني لأستغرب . . . فرغم كل شيء . . . ممن يتكون هذا المجتمع ؟ . . أليس منّا ومن أهلينا ؟ . . أنا أرفض هذا التناقض الاجتماعي . . . وأجزم أنكن ترفضْنه أيضاً . . . ولا أظن أن آباءنا يرضون لنا الفجور . . . ولكن الفجور رغم ذلك ما زال باقياً يتنفس وينمو بيننا وعلى حساب سلامة مجتمعنا . . . فكيف يتم ذلك . . . ومن هو الذي يرعى هذا الواقع ويحميه ؟ ؟ . . هذا خطير . . . خطير جداً . . .

أصلحت هند من وضع نظارتيها وهي تتابع معجبة كلام فدوى باهتمام دون أن تحول نظرها عن فدوى حتّى وهي

ترشف الشاي . . . وهند طالبة في السنة الثانية من فرع الأدب العربي وهي جارة لأمل ورندة ، كما أن مياً أمضت معهن طفولة جميلة ولما أن كبرن قليلاً أصبحت هند التي لا تكبرهما إلاّ بعام واحد كأخت كبيرة لهما تجدان راحتهما بقربها ، وتلاقيان في حديثها بلسماً لما يخفق به قلباهما . . . فهي دائمة التفاؤل ولا تّهن نفسها لعقبة . . . يطفح البشر من وجهها ليسكب سكينة رائعة في نفوس صديقاتها من حولها . . .

وما أن أنهت فدوى كلامها حتى كانت مودة هند — التي كانت تبتسم لها مشجعة وموافقة — تغمر روحها . . . نظرت هند إلى أمل شاكرة :

— جزاك الله خيراً يا أخت أمل أن هيأت لنا هذه الدعوة اللطيفة . . . فيسرت لنا لقاء رائعاً . . . وقد تطرقت أخواتنا إلى موضوع حساس جداً . . . ربما توافقنني يا أخواتي إن لخصته بهذه النقاط :

١ — هناك انحراف مرعب يهدد بنسف الأسس الأخلاقية للمجتمع ويوهن الترابط الاجتماعي مما يفقد مجتمعنا القدرة على مجابهة وحل الأزمات الخطيرة التي تهدده . . .

٢ — وهذا الانحراف مرفوض ويقابل باستياء عام . . . وإن كان استياء مبهماً لا يستطيع حتى أن يحدد منابع الانحراف.. فضلاً عن أن يطهر المجتمع منه . . .

٣ – والخطير أن فترة الانحراف والتفسخ الاجتماعي تتواكب مع فترة تكالب وتداعٍ من الأعداء الحاقدين للاجهاز حتى على احتمال توثب روح الأمة لاستنشاق نسائم العزة ولو في المستقبل . . .

وهذا التمزق لا يصيب المجتمع فحسب بل ويمتد إلى داخل نفس الإنسان من أمتنا . . . ليصيب تلك النفس بالشتات والتبلبل . . . فتنعدم القدرة على العطاء وتدخل قدرات الأمة في حالة العطالة . . .

ولو عدنا أيتها الأخوات إلى التاريخ نسترشده لوجدنا أن كل أزمة فتكت بأمتنا سبقتها فترة عطالة. . . حيث تتسمم الربط الاجتماعية . . . وتلهث نفس الفرد في تيه ضياع وتمحور حول الذات . . . ولاكتشفنا أن العلة تتمثل في شيء واحد . . . هو انسلاخ الفرد عن عقيدته وبالتالي فقدان المجتمع لرسالته . . التي تتلخص في إنهاء عبودية كل البشر لأي بشر . . . وجعلهم جميعاً عبيداً لله وحده . . . أي ألا يبقى على الأرض نظام يحكم بسوى شرع الله . . . وألاّ يبقى على وجه الأرض إنسان واحد إلاّ شملته رحمة الإسلام وعدله . . .

هزت فاتن رأسها آسفة وقالت :

– يا حسرة على المسلمين . . . كان الواجب أن يخرجوا

همّ البشرية من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام . . . أما واقعهم . . . فشيء محزن . . . بل ومبكٍ والله يا أخواتي . . . فها هي أولى القبلتين يساوم عليها . . . ويصبح مغتصبوها – الذين هم أعداء لله ورسوله – أصدقاء لبعضهم . . . بل والأدهى أن هؤلاء الخونة المتنكرين لدينهم يعتبرون مروقهم فخراً يجب أن يكافؤوا عليه . . . نعم . . . جزاء الخيانة المعلنة والمستترة . . . جزاء التحالف مع أعداء الله مهما كان لونهم ولسانهم . . .

اهتز وجدان أمل ، فغطت وجهها بكفيها وهي تغالب عبرات حارقة قائلة :

– الخيانة هي الخيانة مهما اختلفت مظاهرها . . . والكيد هو الكيد مهما اختلفت أساليبه . . . وما يلقاه المسلمون على ساحة لا يسلمون منه على الساحة الأخرى . . . وها هم إخوتنا مسلمو يوغسلافيا يعذبون عذاب الهون . . . يا للفظاعة . . . تصورن أن الملحدين السفلة يرمون بإخواننا وأخواتنا الكرام في آلات تعليب لحم البقر . . . المتوحشون يدخلون المؤمنين إلى المسالخ أحياء ويخرجونهم منها عجينة من لحم وعظم وقد اختلط منهم كل شيء . . . وربما أطعموا تلك الأجساد الزكية لكلابهم . . .

جمدت سحن الفتيات وبرزت عيونهن من محاجرها وكأن يداً باردة تضغط أعناقهن بوحشية . . . وبدت الكلمات

عاجزة عن التعبير فتلاشت . . . وبقيت قبضات بضة مشدودة بإصرار . . . ودقات قلوب غاضبة تكاد تحطم الأضلاع لتقفز صارخة . . . واإسلاماه . . وإسلاماه . . . واإسلاماه . .

عاد صوت هند الهادىء يتسرب في نفوسهن ويضيء لهن شمس الأمل :

- أذكركن أيتها الصالحات بكلمة للفاروق عمر رضي الله عنه . . . الذي يقول عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« . . . إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » [1] . .

وكلمة عمر هذه قاعدة حق ما وجدنا تاريخنا حاد عنها قيد أنملة . . . ولا عجب إذ لا تبديل لسنة الله . . . وما نطق عمر رضي الله عنه بهذا القانون الاجتماعي عن هواه . . . وإنما استنبطه من كتاب الله العظيم وما عاشه من تاريخ أمة الإسلام وصحبة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . . . لقد أعلنها عمر رضي الله عنه خفاقة مدوية . . .

« . . . إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله » [2] . .

---

(١) عن أبي ذر . كتاب (تاريخ عمر بن الخطاب) لأبي الفرج بن الجوزي .

(٢) قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . . (حياة الصحابة) .

وها هو التاريخ ينحني لهذا القانون الناظم لعزة المسلمين وذلهم . . . فكل هذه الانتصارات التي نتغنى ونفتخر بها أما تحت راية الإسلام شيدت ! . . وهذه البلاد التي نحيا فوقها أليس هو الإسلام الذي مهدها لنا ! . . وهذه الأرض التي يتكلم أهلها العربية اليوم أليس هو دين الله الذي وحد بينهم وأذاب عصبياتهم القومية وحبب إليهم لغة القرآن والإسلام !؟. وهؤلاء الأبطال العظام الذين ذادوا عن الإسلام والمسلمين كصلاح الدين الأيوبي محرر القدس وداحر الصليبيين والسلطان قطز قاهر التتار بإذن الله ، والظاهر بيبرس . . .

لو سئلوا من هم وما هو الباعث الذي حرضهم لإيقاف حياتهم قتالاً وجهاداً لأعداء دين الله الغاصبين والطامعين والحاقدين . . . لأشهدوا التاريخ أنهم مسلمون دافعوا عن أرض إسلامية وشعوب إسلامية ولا شيء غير هذا . . . لقد تمسكوا بدين الله وعملوا له وبه فحصلوا نصراً وعزاً . . .

وتلك الهزائم والنكسات المذلة متى حاقت بنا ؟ ! . . ومتى تهيأ للتتار الكفرة الانقضاض على بغداد عاصمة الخلافة ؟ . ومتى استطاعت الصليبية الحاقدة أن تغزو ديارنا وتستبيح حرمات مساجدنا وديننا ؟ . . ومتى أتيح لأعدائنا تقويض آخر رموز الخلافة . . . بل ومتى أصبحت أمة الإسلام وديار الإسلام مزقاً ونهباً تتناهشها قوى الأعداء التي كانت وما تزال وستبقى متربصة بنا الدوائر — إلا أن ندمرها بإذن الله — . . .

لقد فقدنا الأندلس . . . وسردينيا . . . وأصبحنا أقلية في قبرص . . . وسلبت منـــا تركستـــان . . . وفلسطين . . . والهند . . . و . . . و . . . و . . .

أيتها الأخوات يجب أن نذكر دوماً أنه ما أصيب الإسلام بنكسة إلاّ وقد سبقها خلل في تبنّي المجتمع لرسالته الربانية ، وعدم وضوح لطبيعة عقيدته وما يترتب عليها من تكاليف على أفراده . . . بل وسيطرة مفاهيم وتصورات خاطئة أعطاها الانحراف قدسية المفاهيم الربانية الصحيحة . . .

تهلل وجه مي رضى بآراء هند وتحليلها . . . فوافقتها قائلة بعزم :

— صدقت يا أختاه . . . صدقت . . . ولطالما تدبرت قوله صلى الله عليه وسلم .

« إذا تبايعتم بالعينة ، واتبعتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه عنكم إلاّ العودة لدينكم » [1] . . .

صدق رسول الله . . . وجزاك الله خيراً يا أختاه فقد أضاء حديثك معنى هذا الحديث الشريف في ذهني . . . فاللهاث وراء الحياة الدنيا وإهمال الجهاد لنشر دين الله وتحكيمه

(١) صححه الحاكم . وللحديث روايات متعددة .

في حياتنا سيُغرقاننا في حياة الذل والضعة . . . كما هو حال المسلمين اليوم . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبين لنا أن الطريق الوحيد للعزة والخلاص أن يعود المسلمون فيتدارسوا دينهم ويفهموه . . . ، ويسعوا جاهدين حتى يصبح هو وحده مصدر سلوكهم وأفكارهم وأهوائهم وكل شأن من شؤونهم . ولو كلفهم هذا كل غال ورخيص من متاع هذه الدنيا الزائلة . . . هكذا فقط نغسل الذل عن أنفسنا في الدنيا ونتقي عذاب الله وسخطه في الآخرة . . . هذا هو السبيل . . . وهذه هي التجارة التي جعل الله ثمنها جنته ومغفرته في الآخرة ، ونصره القريب في الدنيا . . .

اكتست مي بمزيد من خشية الله . . . وتهدج صوتها من قدسية القرآن الكريم وهي ترتل قوله سبحانه وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين »[١] . . .

شعت كلمات الله القدسية في نفوس الفتيات عزيمة

---

(٢) سورة الصف (١٠ ـ ١٣) .

وإصراراً على الاستجابة للتحريض الرباني . . . وتوهجت عقولهن بنور الله كمنارات تضيء في ظلمة الجاهلية المعاصرة . . فليتشابك ضياؤها مع ضياء منارات . . . ومنارات مبثوثة على سطح هذا الكوكب . . . وليعمَّ الأمن وسلام الإسلام كل رقعة الأرض وكل بني الإنسان عما قريب بإذن الله العلي القدير . . .

وافترقن بعدما اتفقن على الاستمرار في تبادل النصح . . . وألا تدخر إحداهن جهداً في البذل لصديقاتها مما عندها . . . وعلى ألاّ تتحرج إحداهن بأخذ ما ينقصها من فقه ووعي من أخواتها في دين الله . . .

وفي تلك الليلة تراءى لنور في أحلامها . . . فتيات ناشرات شعورهن يضحكن مولولات . . . وهن يلقين بأنفسهن في مستنقع آسن . . . ولما رأينها لمعت عيونهن بضجيج حاقد . . . ولكن نوراً تبينت خلف قناع الحقد الهش رجاءً متوسلاً . . . يغبطها ويلتمس العون منها . . . فنادتهن محذرة . . ولكن أفاعي مرقطة في القاع عزفت ألحاناً مجنونة زادت هستيرية الفتيات البائسات . . . وفجأة ظهرت صديقاتها المؤمنات وأخذن يحجزن أولئك التعيسات المقنعات بمرح مزيف . . . فهجمت الأفاعي المتوحشة على الطاهرات . . . محاولة غرس أصابعها القذرة – المطلية ببريق خادع – في رؤوس المؤمنات . . .

تململت نور في فراشها . . . وأيقظت صرخاتها المكبوتة أمها التي أمسكت قلقة بيد ابنتها النائمة . . . ومست بيدها الأخرى جبينها بحنان . . . تشنجت يد نور عاصرة كف أمها . . وتعابير وجهها المتقلصة تنبيء باضطراب شديد . . . ثم عادت قبضتها فاسترخت . . . وأزهرت على وجهها ابتسامة هانئة . . . وكأنها اطمأنت لنتيجة معركة شغلتها . . . فانسحبت الأم بهدوء دون أن توقظها . . . وقبل أن تغلق باب الغرفة تهادى إلى سمعها صوت ابنتها وهي تزفر مرتاحة . . . الحمد لله . . .

الفصل الثالث

جَليسٌ .. وَجَليس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ... ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » ...

رواه أبو داود



انتبهت ندى لانصراف زميلتها في المقعد مها عن متابعة الدرس . . . فبينما كانت المعلمة تشرح على السبورة طريقة حل إحدى المعادلات الجبرية انشغلت مها بقراءة مجلة رخيصة ، وقد وضعتها على ركبتيها وأسندت مرفقيها على منضدة المقعد وقد غابت كلية عن جو الدرس ، وعن تلك المرأة الملطخة بغبار الطباشير الأبيض والمرهقة بتبسيط الدرس المقرر لطالباتها في الصف الثاني الثانوي . . .

فوكزتها ندى وهمست باستياء :

– ما هذا يا مها ؟ . . انتبهي إلى الدرس . . . إنك تضيعين نفسك .

التفتت مها إليها وكأنها تفيق من حلم مخدر . . . وتمتمت مسحورة :

– لقد هربت العاشقة مع حبيبها ... ونحن ما زلنا نحلّ معادلات الجبر ... آه ... يا ندى ما أسعدها ! ..

وهنا ارتج الصف بصراخ المدرسة :

– ندى ... مها ... كفاكما ثرثرة ... أنا أشقى بالشرح وأنتما تتلهيان ! .. إن كنتما تستطيعان الصمت فتابعا الدرس مع صديقاتكما ... وإلاّ فبإمكانكما العودة إلى والدتيكما ومساعدتهما في المطبخ ...

ارتجت مها وألقت بالمجلة تحت المقعد وتشاغلت بالعبث بأصابع يديها ... وأطرقت ندى خجلة ... وقد اشرأبت أعناق الطالبات إليهما ...

وما لبثت المعلمة أن عادت إلى معادلاتها ... واستغرقت ندى بمتابعة الدرس الشيق بالنسبة لها ... فهي شديدة الاهتمام بالمواد العلمية ... خاصة وأنها ستتقدم إلى امتحان الشهادة الثانوية للفرع العلمي في العام التالي ...

ومرة ثانية تاهت مها في شرودها ... وظهر التأثير الأولي والسريع لقصص الضياع التي حشت بها رأسها ... خطفت المدرّسة نظرة مشفقة إلى طالبتها الساهمة ... وهمست لنفسها ... الإنسان بحاجة إلى قيم ... قيم حقيقية ومبررة ... ليبني عليها كيانه ويستمد دوافعه منها ... ويحدد على هداها أهدافه في الحياة ... فإن هو جرد من قيمه من خلال عملية

تربية موجهة ومغرضة سواء بأسلوب المناهج القاصرة . . .
أو بالتأثير المحطِم الذي يفشيه الإعلام الوضيع . . . فسيعيش
عندها دون توازن كمن يتأرجح على حافة هاوية . . . يكاد
في كل لحظة أن يتردى فيها . . . فكيف بمراهقة كمها
انسحقت بثقل ألف مؤثر مدمر ! . . دون أن يلوح لها حتّى
بصيص من نور يكشف لها أن ما تتخبط فيه هو البؤس الحقيقي . .
وأما السعادة والهناء فشيء آخر . . .

بينما راحت مها ترسم قلوباً كثيرة وقد اخترقتها سهام
تقطر دماً . . . وأحرف ميتة نثرتها على الورقة التي كانت
ناصعة البياض . . .

لم تكد المعلمة تغادر غرفة الصف حتّى أخرجت مها من
محفظتها مرآة ومشطاً لتصلح من تسريحتها وتطمئن لجاذبيتها . . .
وهي تسائل نفسها . . . أهناك من هي أجمل مني ؟ . . بل
إنني أنا الأميرة الحسناء . . .

امتلأ قلب المعلمة بالانقباض فهي تحس بمسؤوليتها عن
طالباتها . . . فتمتمت بمرارة وهي تفكر بطالبتها الواهمة . . .
مسكينة هذه الفتاة . . . بل ومسكينات كل بنات حضارة
التيه . . . أهكذا إذن ؟ . . الجمال أولاً ؟ ! ! . وجمال
ماذا ؟ ! . وكيف يقاس هذا الجمال ؟ ! . . بدرجة لون
الشعر . . . ونسبة تركيز المادة الملونة في البشرة . . . وبعدد
سنتمترات محيط الخصر . . . و . . . و . . . . . . هكذا

إذن وبهذا تفضل الواحدة الأخرى ! ؟ ؟ . . يا للسخف الذي تنضوي عليه مقاييس أسواق النخاسة . . . فبكل بساطة إن أعظم امرأة بمقاييسهم لن تستحق بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً إلاّ أن تكون طاهية في مطعم أو غسالة ملابس في فندق . . . لأنها لم تستطع الحفاظ على مواصفاتها الجسدية طويلاً . . .

تنهدت مشفقة :

وهل ستكون مها واحدة من أولئك المخدوعات الساذجات ؟ ! ! . .

ودون أن تترك فرصة لمعاتبة ندى للمت مها أغراضها مستعجلة . . . وأسرعت إلى خارج المدرسة مع السيل المتزاحم لطالبات الثانوية . . . وهناك تحت شجرة مقابلة لباب الثانوية ... وقف تيس مستخف بجلد فتى يتصنع الرجولة . . . ويمزق حياء الفتيات ــ المتعضات من سفالته ــ بعواء ذئب متخوم بلحم حمار متفسخ . . . ولما رأته مها أشاحت بوجهها متصنعة اللامبالاة . . . فبصبص بلسانه لاعقاً مشفريه . . . وابتدأت المطاردة . . .

* * *

أضافت نور قليلاً من حمض الكبريت الكثيف بحذر إلى أنبوب الاختبار الحاوي شيئاً من المحلول الكيميائي المجهول

– فجلسة الكيمياء العملية اليوم مخصصة للكشف عن هوية الشوارد في محلول كيميائي مجهول – . . . في حين سجلت ماجدة بعض الملاحظات التي توصلت إليها مجموعة الطلبة والمكونة من أربعة أشخاص . . . نور وماجدة ورولا وفريد . . . وكان يكفي أن يتكلم فريد بلثغته المتصنعة حتى يجثم على أنفاس نور الضيق الذي داهمها في اليوم الجامعي الأول . . . عندما حاول هذا المتكسر استغلال وحدتها لأمر رخيص في نفسه . .

وبعد انتهاء التجربة أخذ الطلبة بنقل النتائج النهائية التي توصلوا إليها لإعداد تقرير الجلسة العملية . . . وفيما هم منهمكون في عملهم . . . طرق فريد بقلمه على المنضدة بميوعة . . . وحدق بالفتيات متوقعاً أن يتركن ما هن فيه ويلتفتن إليه . . . ولكنهن تابعن ترتيب نتائجهن . . . فتقنع بابتسامة متداعية . . . وقال كمن يلقي بمفاجأة . . .

– لقد مر شهران على بدء الدوام . . . وحق لنا أن نرفه عن أنفسنا ولو قليلاً . . . لذا فقد قررت ثلتنا أن تقيم حفل غداء يوم الجمعة في أحد متنزهات الضاحية . . . هيه . . . ما رأيكن ؟ . .

فردت رولا مسرورة :

– شيء رائع . . . أنا موافقة . . .

كما قالت ماجدة وهي ما تزال تكتب . . . إنها ستكون

فرصة جميلة لتمضية بعض الوقت المرح . . . لذا فإنها موافقة أيضاً . . .

اما نور فقد تابعت تنظيم تقرير الجلسة العملية معتبرة ألا علاقة لها أصلاً بالموضوع . . . فهمست رولا :

– وأنت يا نور يجب أن تشتركي معنا . . . وسأكون مسرورة أكثر لو جئتِ . . .

كما نظرت إليها ماجدة وكأنها تقول . . . إيّاك أن متذري . . .

فقالت نور باشّة :

– شكراً يا رولا . . . وأتمنى لو تزورينني أنت وماجدة.. بل وحبذا لو نعد معاً لقاء لزميلاتنا يكون فرصة طيبة لتوثيق صلاتنا . . . ولإضفاء شيء من التجديد في حياتنا . . . وسأكون سعيدة لو تم هذا الحفل في منزلي . . .

أبدت رولا وماجدة حماستهما للفكرة الجديدة . . . إلاّ أن فريد الذي أحس بالرياح تجري في غير وجهته . . . قطع عليهن حديثهن مخاطباً نور بدلع :

– لا . . . لا . . . لن تُقبل الاعتذارات هذه المرة . . . ويجب أن تأتي يا نور . . . وإلاّ فسنفتقد الجمال في حفلتنا . . .

وأضاف بخلاعة . . . ملتفتاً إلى رولا وماجدة . . .

– مع اعتذاري لكما . . . أيتها الوصيفتان . . .

اتقدت نور غيظاً لوقاحته التي ما استطاعت هضمها . . . فخاطبته حازمة :

يجب أن تفهم أننا نعمل في مجموعة واحدة لأن الإدارة تريد هذا . . . وأنبهك إلى ضرورة احترامك لنفسك . . . فاضبط كلامك وتصرفاتك . . . أفهمت ؟ ! ! . .

تسربل فريد بالصغار . . . فحاول إخفاء هوانه بالمداورة.. فقال بصوت مجروح تدافعه ضحكة ميتة . . . مبدياً ما يخفيه في نفسه من نذالة . . .

– آه منك يا نور . . . أنت كالوردة . . . حتى يتمتع المرء بك لا بد أن يتحمل أشواكك في البداية . . .

انتفضت نور واقفة وقد تملكها الغضب والحنق من هذا الصفيق الوقح . . . فرمته بالكلمات وكأنها نصال ماضية تغرس في رقبة ثور هائج :

– لو اشترط للقبول في الجامعة توفر شيء من الخلق أو الشهامة في طالب الانتساب لما كنتَ هنا الآن . . .

ثم جلست وهي تكبت غيظها . . ولتكمل إنجاز التقرير ون أن تعيره أدنى اهتمام . . . ولكن النبرات الحادة نبهت الطلبة إلى أن هناك أمراً ما يستحق الاستطلاع . . . فاشرأبت

الأعين بفضول تستوضح الخبر . . . وكان موقف نور الحازم قد أخرج فريداً من غنجه مذهولاً . . . وبعد لحظات من الحيرة أسرع نحو باب المخبر وغادره بخطا متعجلة متعثرة . . .

مرت دقائق من الصمت العاصف . . . آنست رولا بعدها بعض الهدوء من نور . . . فاقتربت منها وهمست معاتبة بلهجة ناصحة ! ! . .

ـ أرجو أن تكوني قد سكنت قليلاً يا نور . . . فأنا أريد أن أكلمك بصراحة . . . أعلم أن فريداً قد تجاوز حده . . . ولكن مواقفك أنت الأخرى غير مفهومة . . . فحتّى الآن لم تسمحي لأحدهم أن يلقي إليك ولا بدعابة . . . لا أعلم فربما لا يروقون لك . . . ولكنك كقرص العسل . . . انظري . . . انظري . . . إن صدرك يكاد يبرز من خلف هذا القميص الضيق . . . وهذا البنطال يزيدك فتنة إلى فتنة . . . وهذه التسريحة الساحرة . . . والعقد الناعم المستلقي على عنقك . . . كل هذا ثم تريدين منهم إن مروا بجانبك أن ينظروا إلى الجهة الأخرى ؟ ! . .

أنت كقرص عسل ولا ينتظر من الذباب إلاّ أن يحوم حول القرص ليشبع منه نهمه إن استطاع . . . فكري في هذا الأمر يا نور . . . فأنا عندما أقف ساعة أمام المرآة في الصباح أعرف لماذا أقف . . . وأرجوك أن تسألي نفسك أنت أيضاً هذا السؤال . . .

هنا همهمت ماجدة في أذن رولا :

– إيه رولا . . . رويدك . . . رويدك على نور . . .

انقضّت صراحة رولا كاللطمة على نفس نور . . . التي كانت تحسب نفسها مبرأة من النقائص . . . فأحست بالهواء يتحجر في رئتيها . . . وودت لو تنشق الأرض وتبتلعها وتهرب من ذلك الإحراج . . .

استدركت رولا مهوّنة على نور :

– تمنيت أن أقول لك هذا منذ فترة بعيدة . . . لا تتأثري مني . . . فقد أردت أن أكون مرآة لك . . . والآن قومي ولنذهب معاً . . .

ردت نور وهي تجهد لتبدو متماسكة :

– شكراً . . . سأبقى قليلاً . . . لأنهي التقرير . . .

انصرفت رولا بينما أصرت ماجدة على أنها لن تنصرف حتى تخرج ونور معاً . . . وعندما انطلقت الفتاتان خارج البناء الصلب ، قالت نور معترفة لماجدة :

– أرجو ألا يضايقك تجهمي فأنا متضايقة بعض الشيء . .

– لن أدعك حتى تعودي إلى صفائك . . . ويجب ألاّ تنقمي على رولا فقد كانت محقة . . .

– أبداً لم أنزعج منها هي بالذات . . . بل انزعجت من

نفسي ... فأنا أعيش في تناقض فعلاً ... كلام رولا أيقظني بل وآلمني ... وسيأتي يوم أشكرها فيه ...

– إنك طيبة ومرنة يا نور ... وقد عظمت في عيني ...

• • •

ارتج المنزل بصوت سامر الهادر كالخوار :

– أريد خمساً وعشرين ليرة ... أعطونيها الآن ... وإلاّ حطمت المنزل ...

وراح يضرب الباب بجماع يده محدثاً أصواتاً كالانفجارات تصم الآذان ... فاختبأ إخوته الصغار تحت السرير خوفاً أن يقع بصره عليهم فيستخدمهم أدوات ضغط وابتزاز على والديهم المتعبين... اللذين سيضطران عندها لدفع المبلغ مكرهين لينقذاهم من يدي (المجنون) ... وهو لقب سامر أطلقه عليه إخوته الصغار لما قارنوا بين صراخه المستمر واستعماله قبضته بدل لسانه ... وتصرفات جارهم الممسوس عندما يستطيع مغافلة أهله والإفلات من قيوده ...

تركت الأم المطبخ باكية ... ورجته بصوت خنقته الدموع :

– كفى يا سامر ... كفى يا بني ... لقد فضحتنا أمام الجيران ... كل يوم حفلة صياح ... كل يوم صراخ

وتحطيم . . . كفى . . . كفى . . . ارحمني وارحم أباك . . .
فرد بغلظة وهو يدفع أمه عنه :

– قلت خمساً وعشرين ليرة . . . أما سمعت ؟ . .
هيا إني مستعجل . . . أعطني النقود فأذهب وأريحكم مني . . .

وأمسك بكتب إخوته الصغار وأخذ ينثرها في ساحة البيت ويدوس عليها بحذائه ماسحاً إياه بالصفحات البيضاء الصقيلة ... فمد أخوه الصغير رأسه من تحت السرير جاهشاً بالبكاء وهو يرى الأغلفة الأنيقة تتمزق تحت حذاء المجنون . . . وصرخ بيأس :

– سيضربني الأستاذ . . . أعطوه . . . أعطوه ما يريد ...
ولكن أنقذوا دفاتري . . . ي . . . ي . . . ي . . . ي . . .

خفضت الأم صوتها متوسلة :

– لقد كبرت يا سامر . . . فافهم يا ولدي . . . من أين لأبيك الموظف أن يؤمن لك هذا البذخ ؟ . . فالخياط لا يكاد حسابك عنده يتوقف . . . ومصروفك الخاص كل يوم بازدياد . . . وأنت لا تدرس . . . ولا تعمل . . . طوال يومك تدور في الطرقات أنت وأصدقاء السوء أولئك . . .
أذهب إلى بيت جدك فأراك في شارع . . . أعود من بيت خالتك فأراك من نافذة الحافلة تتسكع في شارع آخر . . . يعود أبوك من وظيفته فيجدك وثلتك في زاوية إحدى الساحات . . . ثم

لم يكن ينقصنا سوى أولئك الساقطات لتنفق عليهن ثمن طعام إخوتك . . . بل وفي الأسبوع الماضي سطوت على ثمن دواء أختك المريضة وشاهدك جارنا يومها جالساً مع إحداهن في أحد تلك الكهوف المظلمة عندما استدعوه لإصلاح عطل كهربائي في ذلك المكان الحقير . . .

احتقنت الدماء في وجهه وجحظت عيناه . . . فقرب قبضته من وجه أمه . . . وهزها مهدداً . . . صارخاً :

– لستم مسؤولين عن تصرفاتي . . . ولا علاقة لأحد بسلوكي . . . أنا حر . . . أنا حر . . . والآن أتريدون إعطائي النقود أم لا ؟ . . هيا قولي . . . لا تريدين . . . أليس كذلك . . حسناً سأريكم . . . سأريكم . . .

خلع أحد نعليه ورمى به زجاج الباب فحطمه . . . ثم خلع الآخر ورمى به زجاج الباب الآخر فهشمه . . . ثم أمسك بالمنبه يريد أن يقذف به زجاج النافذة . . . فألقت الأم بنفسها على يده نائحة :

– كفى أيها المجنون . . . الزجاج مفقود من الأسواق . . . توقف . . . (شرشحتنا) أمام الناس . . . سأعطيك مصروف بقية الأسبوع وأطعم إخوتك عدساً . . .

دخلت إلى الغرفة لتأتي بالنقود . . . ولما عادت بها وجدته واقفاً على المرآة يصلح هندامه ، فألقت له القطعة الورقية . . .

وهي تقول مغتاظة :

– خذ . . . خذ أيها الحمار . . .

فضحك ناهقاً مقلداً صوت الحمار وهو يتبعها إلى المطبخ ، فوجدها قد أنضجت أوقية اللحم الّتي يجب أن تطبخ عليها طعام الأسرة كلها . . . فأمسك – دون أن تنتبه له – قطعة خبز . . . وبلقمتين أجهز على قطع اللحم القليلة . . . ولم يترك في القدر سوى بعض الجزيئات المتناثرة من اللحم . . . دس النقود في جيبه وذهب صافقاً الباب خلفه وهو يصفر وكأنه خارج من عرض سينمائي . . . فلما شاهدت الأم بقايا أوقية اللحم بكت بقهر . . . وهي تدعو على ابنها :

– لا هنأك الله أيها الجشع . . . ماذا أطعم أباك عندما يأتي أيها المجنون . . . وماذا أطعم هؤلاء الصغار ؟ . .

ثم استدركت بحنو الأم وإشفاقها :

– اللهم اهده . . . وأبعده عن رفاق السوء . . .

وخانتها ركبتاها الواهنتان فألقت بنفسها على الكرسي وانخرطت في نشيج عميق . . . استطلعت الفتاة الصغيرة الغرفة بعينيها من مخبئها تحت السرير . . . وأصغت ، فلما تأكد لها رحيل أخيها تنفست الصعداء ثم أشارت إلى أخيها مبشرة . . . خرج الأطفال وهرعوا إلى شتات كتبهم ودفاترهم . . . وهم يتنقلون بحذر وكأنهم يجتازون حقل ألغام . . . فقد كانت

الغرفة مزروعة بشظايا الزجاج المتناثر . . . ثم جذبهم نحيب أمهم فأكبوا عليها . . . هذا يربت على كتفها . . . وتلك تمسح على رأسها . . . وتكورت الصغيرة في حجر أمها وطوقت بذراعيها الضعيفتين الجذع الهرم المرتعش وهي تسترضي أمها بحنان البراءة :

— لا تبكي يا ماما . . . لا تبكي . . . واطبخي لنا بسمنة فقط دون لحمة . . . نحن نحب الخضار بدون لحمة . . . وبابا يحبها أيضاً . . . يحبها كثيراً . . . . رأ . . . ولكن لا تبكي يا حبيبتي . . .

. . .

وصل سامر لاهثاً إلى منزل صديقه زياد . . . إذ كانت الثلة بانتظاره ، وبمجيئه اكتمل العدد . . . أربعة شباب أتراب بكامل فتوتهم الجسمية ، يجمعهم الفشل الدراسي . . . فبعضهم كسامر مثلاً قد اعتاد التغيب المتكرر عن المدرسة . . . وبالتالي الرسوب المزمن في حياته الدراسية . . . بادر زياد سامراً :

— وأخيراً جئت أيها الخبيث . . . أبمفردك أم أحضرت الرهان الذي خسرته البارحة ؟ . .

— اطمئن . . . اطمئن أيها الشقي . . . ها هي زجاجات (البيرة) الخمس . . . ولكن هل جاء الشباب ؟ . .

– نعم . . . وستكون جلستنا عامرة اليوم . . . ولن يعكرها سوى وجودك أيها المزعج . . .

استقبل الأصدقاء سامراً بحماس . . . خاصة وأنه أحضر زجاجات البيرة . . . فهم سيمضون (وقتاً طيباً) – برأيهم –.. وهذا أقصى أملهم . . .

طفحت الأكواب بالشراب الأصفر الرغوي. . . وطفحت معها جلستهم بأبذأ عبارات الشتّم والدناءة . . . وبزعمهم أنها هي الرجولة المحض . . .

تأمل زياد الفقاعات الطافية على سطح السائل المزبّد بسخرية . . . وزعق بسامر (مازحاً) :

– ماذا أحضرت لنا أيها الكلب ؟ ! . . لا بد أنه بول حمار . . .

فرد عليه سامر نابحاً :

– وحتّى هذا كثير عليكم . . . أيتها الطفيليات القذرة ...

أصابت هذه (الدعابات) . . . الهابطة مكامن الطرب في نفوسهم فملأوا الفضاء بضجيجهم الصبياني . . . وهم يفرغون الأكواب الكريهة في حلوقهم – عدا مهند فإنه كان يتأملهم صامتاً – ويغمرهم ضجيج موسيقى متنافرة تندلق من المسجل بجنون . . .

وفجأة تذكر غسان (أمراً هاماً) . . . فخفض صوت المسجل . . . وأشار إلى سامر مستجوباً :

— أيها اللعين النجس . . . ما أخبار صيدك الجديد ؟ ؟ .

تابع البقية غساناً محاصرين سامراً باستجواباتهم الماجنة . . . فقهقه مفتخراً . . . وفرك كفيه بترفع كقائد عظيم سيتواضع ويروي أنباء آخر فتوحاته ! . . ثم قال مزهواً . . .

— من يسمع حماستكم لهذه الأخبار يحسب ألا باع لكم في هذه الأمور . . . ولكنني على كل حال . . . معلمكم وقائدكم ورائدكم بلا منازع . . . فلن أبخل عليكم بشيء من خبرتي . . .

فصرخ زياد (ثائراً لكرامته) :

— خسيء من قال هذا . . . لقد مر على كل منا من هذه القصص ما يملأ مجلدات . . .

ولكن مهند قاطعهم متهكماً :

— أمر لا فخر لكم فيه . . . فالمال (السايب) يعلم حتى الغبي والأحمق فن السرقة . . .

فتدخل غسان معيداً إياهم إلى صلب الموضوع :

— دعونا من هذا الكلام . . . وليحدثنا هذا الأحمق عن آخر سرقاته . . .

فانفجروا زاعقين لدعابته . . . استعاد سامر هيئة الفاتح الذي سيتنازل ويبسط خطة حربية معقدة . . . لمعاونيه . . . الأغرار . . .

– القضية . . . كالعادة . . . فتاة مراهقة بلا خبرة في الحياة . . . حُشيت رأسها بكلام عن الحب والحبيب . . . وغُسل دماغها ببرامج وأغاني الإذاعات – الثورية منها أو المستسلمة – التي على تعاديها في الأمور الاجتماعية والسياسية تتفق جميعها بالدعوة للعشق والفساد والانحلال قبل الأخبار الحاسمة وبعد المواقف المصيرية . . .

ثارت الثلة في وجهه . . . وقد ضاقوا بهذه المطولات . . .

– تكلم عن المهم. . .أين تظن نفسك.. في محاضرة ! ! .

فنهرهم مهدداً :

– دعوني أكمل . . . وإلا فلن أخبركم بشيء . . .

كما قلت لكم . . . فتاة بلا خبرة ولا ناصح تريد دخول الحياة من دهليز الحب . . . ولا تجد من يهتم بها . . . هيه . . . فاهتممت أنا بها . . . وهكذا استحقت لقب (الصيد الجديد) . . وسألهو بها ريثما يتوفر الصيد الأكثر جدة . . .

همس غسان صافراً بحسد :

– أيها الوغد . . . أيها الوغد . . . وما اسمها ؟ . . ألن تخبرنا ؟ . . فلربما خلفناك معها عندما تملها . . .

أجابه سامر بنفسية من يرمي عظمة حقيرة ليخرس بها كلباً مسعوراً . . .

– يا سيدي . . . اسمها مها . . . هل انبسطت . . . مها . .

هب مهند كالملدوغ عند سماعه الاسم . . . فقد خيّل إليه أنه يعرف صاحبته . . . جمدت سحنته بوحشية . . . وتمّ مذهولاً . . . مها . . . مها . . . وكأنه يستخرج شخصاً قد تاه في ذاكرته . . . وفجأة شعر بسهم يخترق رأسه من الأذن إلى الأذن . . . مها ! . . ابنة أخي ! . . تحفز يريد أن يهجم على سامر ليحطم رأسه . . . ابنة أخي أيها الحقير ! ! . ولكنه ما لبث أن عاد وأرخى قبضته . . . فقد تذكر أن ابنة أخيه ما تزال في عامها الثاني . . . أوشك أن يضحك على نفسه . . . غير أن الضحكة استعصت في صدره . . . نعم ابنة أخيك في عامها الثاني . . . لكن من يضمن لك أيها المغفل ألاّ يجلس بعض السفلة ولو بعد خمسة عشر عاماً أو حتى عشرين عاماً . . . ويتقاسمونها . . . أحس مهند بالاختناق . . . ولم يستطع إبعاد هذه الصورة الرهيبة من مخيلته . . . فقام إلى النافذة وأسند رأسه المتعب على طرفها . . . وهرب بعينيه خارج الغرفة تاركاً أصدقاءه – الذين لم يشعروا بوجومه – يخوضون في عيثهم . . .

وهناك في الشارع . . . وراء النافذة . . . تجمع بعض الصبية – لم يبلغ أكبرهم السابعة من العمر – يلعبون . . .

ويتصايحون تارة ويتراكضون أخرى ... تصدع فرحتهم
عبوس الكبار المتصنع وتجبرهم على مشاركتهم بهجتهم ببسمة
تشجيع ... أو كلمات مداعبة ... وعند زاوية الشارع
وقفت طفلة صغيرة بديعة كدمية ... تزين المكان ببراءتها
العذبة وقد ضمت دمية بحنان إلى صدرها ... وهي تراقب
لهو الصبية بعينيها اللامعتين ... ركض طفل أشعث الرأس
نحوها وبدون مقدمات جذب الشعر الفاحم بإحدى يديه ...
وأمسك باليد الأخرى اللعبة محاولاً انتزاعها من الصغيرة
الوادعة ، التي أخذت تصرخ بشراسة . وقد وقعت على
ركبتيها ورأسها الصغير مشدود إلى الأمام ... ورغم ذلك
كانت تتشبث بلعبتها بإصرار... اعتصر مهند ألماً وهو يتابع
الحدث ... بكت الطفلة مستنجدة ... وصل صراخها
سمع صبي أشقر فأسرع مستنفراً... وهجم على الأشعث ...
ضربه ... لكمه ... شد شعره بوحشية ... ثم طوق رقبة
المعتدي بذراعه ... تخلصت خصلات الشعر الطويل من
القبضة المتسخة ... ونهضت الطفلة ... وما زالت يداها
قابضتين على الدمية ... ثم أفلت المعتدي اللعبة ليتفرغ
للشجار ... وهنا تدخل بقال الحي وفض نزاع الطفلين
موبخاً ومعنفاً ...

اقترب الطفل المنجد من الصغيرة وربت على كتفها بحنان
الأب ... ومسح بيده الأخرى دموعها ... سكنت الطفلة

وسارت معه نحو مدخل العمارة . . . وقبل أن تتدحرج إلى منزلها استدارت ومدت لسانها مغيظة للطفل الأشعث . . . وبعدما ركضت خطوات ناداها الصبي الأشقر وأخرج من جيبه قطعة حلوى وأعطاها إياها . . . فأخذتها ضاحكة وجرت إلى منزلها وهي تقفز كالعصفورة . . . همس سهند فرحاً . . . لا بد أنه أخوها . . . نقر على زجاج النافذة منغماً وهو يفكر .. ترى كم مليون مرة سيتكرر هذا المشهد على سطح الأرض ؟ ؟ .

التفت غسان إلى مهند غامزاً :

— ما الخبر ؟ . . أراك لست منسجماً معنا في الفترة الأخيرة . . . أوراءك صيد جديد أنت الآخر ؟ ! . . هات . . . هات . . . وأمتعنا . . .

ابتسم مهند . . . ثم قال جاداً :

— نعم . . . لديّ أخبار ما كنتم لتتوقعوها . . . إنها مفاجأتي لكم . . .

ألقى أصدقاؤه ورق اللعب من أيديهم ، ونظروا إليه مستفهمين . . . فأردف بحزم . . .

— جئت اليوم قاصداً إخباركم بما أنوي فعله . . . وأتمنى أن تكونوا جادّين ولو لمرة واحدة . . .

فقاطعه زياد عاتباً :

— إنك تعلم أنه عندما يجد الجد فسترى منا ما يعجبك ...

أهناك مشاجرة . . . أيوجد من يضايقك ؟ . . قل ولا تهتم . . . فنحن شلة واحدة . . .

هز مهند رأسه نافياً خواطر زياد . . . وعاد وجلس على كرسيه . . .

— أعلم أننا ثلة واحدة . . . ولذا أردت اليوم أن أخبركم بالطريق الذي اخترت سلوكه . . .

فردوا بصوت واحد . . . وقد تملكهم الفضول :

— هيه . . . تكلم . . . لقد شغلتنا . . .

— لم أكن قد أخبرتكم شيئاً عن نداء . . .

فقاطعه سامر هاتفاً بانتصارٍ . . . وكأنما اكتشف دواءً فعالاً لمرض السرطان :

— ها . . . ها . . . صيد جديد إذن . . . ألم أقل لكم . . . أرأيتم . . . يبدو أن الموسم هذه الأيام موسم خير . . .

فقطب مهند جبينه مستاءً . . . وقد اختفت ملامح الانبساط من وجهه . . .

— اسمعوا . . . لا أسمح لكم أبداً بهذه الترهات . . . لقد أردت أن نتكلم كرجال . . . ولكنكم مراهقون . . . نعم مراهقون . . . رغم تجاوزكم العشرين عاماً . . . على كل أنا المخطىء لأنني أردت مصارحتكم . . .

صفق غسان بيديه منهياً الخلاف . . . وقال :

ـ مهلاً يا مهند . . . لقد سبق لسان سامر بحكم العادة . . أشركتا في أمرك . . . ولن تسمع منا إلاّ ما يرضيك . . .

ضبط مهند أعصابه . . . وأجال بصره في أصدقائه الثلاثة.. ثم قال بهدوء :

ـ نداء فتاة لا كباقي الفتيات اللواتي تعرفونهن . . . صدقوني أنها إنسان من نمط آخر . . . فعندما كنت أراها في حارتنا كنت أقول لنفسي . . . ما زال في هذا العالم شيء من الفضيلة . . . وكان دليلي أمراً واحداً . . . هو . . . هي . . . مجرد تذكري أن هناك نساء بصلاحها يخز ضميري ويثبطني عما اعتدناه من سفاهات . . . ثم . . . ثم قلت لنفسي . . .

ماذا تنتظر أيها المسكين ؟ ! . . وحتى متى ستبقى سادراً في غيك . . . كانت نداء قد أصبحت بالنسبة لي عنوان حياة جديدة . . .

همس زياد مندهشاً :

ـ ثم ماذا ؟ . . أكمل بالله عليك . . . إنها قصة من نوع جديد . .

ـ ثم ! . . كان من الطبيعي أن أرسل أمي لتخطبها لي . .

فتمتم سامر :

– ومن الطبيعي أنها رفضت . . .

– لا . . . لم ترفض ولكنها اشترطت شرطين . . .
قالت إن وضعي الحالي لا يرضي الله ولا يرضي رسوله . . .
وبالتالي لا يرضيها. . .وأضافت أن في كل إنسان إمكانية خيّرة
كما أن لديه قابلية للفساد . . . وعليّ أنا تنمية الخير في نفسي...
وأنه ما زال هناك متسعاً لإصلاح كل شيء . . .

وضع غسان كفه على خده وصفر مذهولاً :

– إيش ! . . إيش يا مهند ؟ ! ! . وما هما الشرطان ؟.

– قالت إنها تعلم أنني فقير لا أملك شيئاً وأن ذلك لا
يعيب الرجل فبمقدوري أن أتعلم مهنة لا تحتاج لرأس مال
كبير أتكسب منها . . . أما الأمر الهام فتريدني أن أعود إلى
الله . . .

– وكيف تعود إلى الله ؟ ! . .

– أمر سهل . . . تريدني أن أواظب في البداية على
حضور الدروس الدينية التي تقام في مسجد حيّنا . . .

– أوَتفعل ؟ ! ! . .

– بل لقد فعلتُ . . . إذ لم أقطع درساً واحداً منذ شهر...
كما أنها أهدتني تفسيراً للقرآن الكريم . . .

ومدّ يده إلى جيب (جاكيته) . . . وأخرج منه كتاباً أنيقاً . . . وأردف بخشوع :

ـ ها هو . . . وقد قرأته مرتين حتّى الآن . . . إنني أتحسر على عمري الذي انقضى قبل أن أستهدي بكلام الله العظيم . . .

هرش زياد رأسه . . . وسأل :

ـ ثم ماذا . . . هل تزوجتما ؟ . .

أجاب مهند بأسف :

ـ لا . . . قالت انها ستمهلني عاماً كاملاً تحصل خلاله على الشهادة الثانوية بإذن الله . . . وأكون أنا قد تفقهت في ديني وأصبحت مسلماً حقيقياً . . . بالإضافة لتعلمي مهنة وتوفير ما استطعت من مال نبدأ به حياة كريمة في ظل هدي الإسلام . . .

همس الثلاثة مشدوهين :

هنيئاً لك يا عم . . . لقد أصبحتَ إنساناً آخر . . .

وهنا فتح الباب ودخل والد زياد مرحباً بأصدقاء ابنه . . . وحاملاً معه أربعة أكواب من الشاي لضيافتهم. . .ذعر زياد لدخول أبيه غير المتوقع وغيرالمرغوب فيه. . .فهب واقفاً في وجه أبيه ليحجب عنه زجاجات الخمر. . .ولكن بعد فوات

الأوان . . . فقد بهت الأب وجمد في منتصف الغرفة مشدوهاً . . . ثم نطق مجروحاً بصوت مكلوم :

— خمر ؟ ! ! ! . . في بيتي تشرب الخمر ؟ ؟ . . أيها الفاسق ! ! . .

وضع الشاي على المنضدة . . . واقترب بهدوء من زياد بسحنته المتجلدة التي لا تنبيء بتهاون . . . وهوى بيده القوية بصفعة قاسية على وجه الفتى فألقته فوق زجاجات الخمر فوقعت أرضاً وتحطمت مشكلة بركة من السائل الكريه الرائحة..

ثم استدار الأب — الذي تملكه الشعور بأنه أهين في منزله ذاته — إلى الأربعة المبهوتين من وقع المفاجأة وأخذ يدفعهم خارج منزله بقسوة . . . وهو يقول بصرير متقطع :

— زياد. . .أخرج أنت وأصدقاؤك . . . اخرجوا . . . هيا اخرجوا . . . لا أريد أن أرى وجوهكم هنا ثانية . . . اغربوا عن وجهي . . . هيا . . .

* * *

ما إن انتهت المحاضرات المسائية حتى تأبطت رولا حقيبتها الجلدية واندفعت خارج الحرم الجامعي لتصل المنزل قبل استحكام العتمة . . . مضت الدقائق متثاقلة عند موقف الباص وتململ المنتظرون . . . ولكن كالعادة فربما ستمر نصف

ساعة كاملة دون أن يحظى أحدهم بحافلة تقله بعد يوم مرهق استنفد طاقاته . . . اقتربت سيارة خاصة من الموقف متهادية . . ثم وقفت أمام رولا . . . وأطلق سائقها منبهها المنغم . . . إلاّ أن رولا ابتعدت عنها ولم تبد اهتماماً بالأمر . . . حتى مد فريد رأسه من نافذة السيارة . . . وصرخ بها :

— إيه رولا . . . لن يأتي الباص اليوم . . . فهو في إجازة . . . هلمي سأوصلك بسيارة أبي . . . تعالي . . .

ارتبكت أمام الأشخاص المتجمهرين عند الموقف . . . ولم تجد بداً — أمام إلحاح فريد الذي فتح لها باب السيارة سلفاً — من أن تركب متر ددة معه. . .فانطلق بالسيارة مسرعاً . . وقبل أن يتيح لها مجالاً للاعتراض اتجه بالسيارة إلى الضاحية خارج المدينة . . . ذعرت الفتاة . . .

— إلى أين يا فريد ؟ ! . ليس هذا طريق المدينة . . . عد بنا يجب ألاّ أتأخر عن المنزل . . .

فرد بخبث مرققاً صوته :

— ما بك أيتها العزيزة ! . . لا تكوني مثل نور . . . ثم ألا نستحق شيئاً من الراحة بعد هذا الإرهاق الطويل ! ؟ . وعلى كل لن نتأخر . . .

وبعد فترة صمت . . . همس ملقياً سهمه الصائب :

– أرجو ألا تسيئي فهمي يا رولا . . . فأنا في الحقيقة أريد أخذ رأيك في أمر هام . . .

نسيت مخاوفها . . . وقد أثار كلامه حب الاستطلاع في نفسها . . .

– والدي غني كبير . . . ويريد أن يزوجني . . .

نظر إليها بطرف عينيه ليراقب أثر حديثه عليها . . . ثم تابع متصنعاً الحرج :

– وقد طلب مني أن أختار الفتاة التي تناسبني . . .

فالتقمت المسكينة الطعم . . .

– أولم تخترها بعد يا فريد ! . . بل لا بد أنك اخترتها . . . فالكلية مليئة بأجمل الفتيات . . .

أشاحت بوجهها نحو النافذة . . . وأردفت وهي تخفي تعابيرها خجلة ! ! ! . . .

– بل إن أجمل فتيات المدينة متجمعات في صفنا . . .

تصنع الوغد الوله . . . وتابعها بفحيح لزج . . . عابثاً بمشاعر الأنثى في نفسها . . . والتي ما تمل تطمح إلى أسرة هانئة وبيت دافيء وكثيراً ما أعمتها عواطفها تلك عن جوهر الرجل . . . فوقعت في شباك المظهر . . . وحبائل الخديعة . . .

ــ اسمعي . . . أيتها الجوهرة . . . أجمل فتيات الدنيا
هي حسناء في فتنتنا . . .

أحست المخدوعة أن قلبها يرقص في صدرها . . . فهمست
وقد ومضى في مخيلتها بيت سعيد وأطفال كالورد ينادونها . . .
ماما . . . ماما . . .

ــ وماذا تنتظر إذن ؟ ! . لِمَ لا تخطبها يا فريد ؟ . .

فرد بنزق مستهجناً أن تنسى أمراً (مفروغاً منه) ! . . .

ــ أخطبها ؟ ! ! . هكذا وبمثل هذه العجلة ! . . الزواج
يا رولا عيشة عمر . . . وحتى يكون ناجحاً لا بد أن تسبقه
فترة صداقة . . . ربما تكون فترة طويلة أو قصيرة . . . ولكنها
ضرورية جداً، صداقة ما قبل الزواج هذه . . . إنها صداقة
مقلمسة وشريفة . . .

رددت رولا شاكة :

ــ فترة صداقة مقدسة وشريفة ؟ ! . .

ــ نعم صداقة بريئة يتأكد فيها الطرفان من انسجامهما
الكامل مائة في المائة . . . وسأقول لك بصراحة يا رولا . . .

أبطأ سرعة السيارة . . . وتنهد ــ محاولاً جعلها تنهيدة
عاطفية ــ وهو يمد يده ليغرسها في شعر المسلوبة . . .

ــ بصراحة يا حبيبتي لقد اخترت الفتاة التي سأعيش

معها ... إنها رائعة وعصرية ... تفهم معنى اللباقة ...
وتفهم معنى الصداقة البريئة بين الشاب والفتاة .

تململت من اليد التي تعبث بشعرها ... أحست بالضيق يخنقها. . .فكرت بالابتعاد. . .ولكن الساذجة ولتثبت للسافل أنها رائعة وعصرية فعلاً وتفهم معنى اللباقة جارته في حركاته الآثمة على مضض ... فقد لاحت لها أخيراً – كما أوهمها الذئب – ظلال الاستقرار ... فكرت في نفسها وهي تغالب اشمئزازها وصدرها يكاد ينفجر من الغم. . .أريد الزواج.. أريد الزواج ... ولكن ... هل هذا هو الطريق ... أين تراني سأنتهي ! ! ؟ ؟. صارعتها الهواجس والأماني ... وخدرها حلم هش كانت تقطعه ومضات محذرة من نهاية مفجعة ... فانحدرت شيئاً فشيئاً إلى قاع كريه تملؤه عناكب بشعة ...

عضت رولا على شفتها بمرارة حتى كاد الدم ينبجس منها وهي تسكن شعرها الثائر ... وتراءت في عينيها أطياف دموع نادمة أخفاها الظلام .... هكذا يا رولا تبحث الفتاة عن الزواج ... وليس هذا بطريق سعادة ولا أمان ... كادت الأوهام الخادعة تحطمك أيتها الغبية ... آه... نعم لقد نجوتُ هذه المرة بأعجوبة ... ولن أعود لمثلها أبداً ...

بصق فريد بصخب ليزيل شعرة طويلة كانت عالقة بزاوية فمه . . . وسألها بجفاف بعد أن وصلت السيارة إلى وسط المدينة . . .

– أين تريدين أن أوصلك ؟

فأجابته وهي تتحاشى النظر إليه . . .

– سأنزل أمام بوابة الحديقة العامة . . . وأتابع بمفردي ...

وقبل أن تغادر السيارة . . . قالت بشرود :

– أتعلم بماذا ذكرتني هذه . . . الـ . . . النزهة ؟ . . لقد ذكرتني بإجابة مثقفة فرنسية لما سُئلت عن رأيها بالصداقة (البريئة) بين الرجل والمرأة . . . أتدري بما أجابت ؟

رد ببرود وهو ينفث دخان لفافته :

– لا . .

تمتمت رولا منتقمة لنفسها وهي تضبط نفسها كيلا تبصق عليه :

– قالت . . . إن ما يقال عن تلك الصداقة إن هو إلاّ أكذوبة اختلقت لخداع النساء . . . فالرجل رجل والمرأة مرأة..

رسم فريد على وجهه ابتسامة صفراوية . . . وألقى بوجهها الأحرف بطيئة :

– أرجو ألاّ تكون قد وصلت إلى هذه البدهية بعد فوات الأوان . . .

صفعت رولا باب السيارة حانقة . . . وحثت خطاها المتثاقلة نحو المنزل . . . مشتتة النفس والأفكار . . . وتلفها مهانة مُذِلة . . .



الفصل الرابع

الطاقة والسبيل

قال صلى الله عليه وسلم :

« الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » . . .

متفق عليه من حديث أبي هريرة



ما ان دخل أبو خالد منزله حتّى صاح ملهوفاً :

— نور . . . ندى . . . يا أم خالد أين ابنتاي ! ؟ .
يا نور . . . يا ندى . . .

أسرعت أم خالد مرحبة بزوجها . . . فأفزعها لونه الممتقع ووجهه المكفهر . . . فتمتمت واجمة :

— خيراً يا أبا خالد . . . خيراً . . . ما بك يا رجل ! ؟ ! .

— أين ابنتاي يا أم خالد ؟ ؟ . .

أشارت المرأة مرتاعة إلى غرفة الفتاتين . . .

— هنا . . . إنهما تدرسان . . . ماذا هنالك ؟ . .

اندفع الأب إلى غرفة ابنتيه اللتين اقبلتا عليه مبتهجتين لعودته المبكرة هذا اليوم . . . فضمهما لاهثاً :

– حبيبتيّ . . . عينيّ . . . أنتما بخير . . . الحمد لله . . . الحمد لله . . .

قلقت الأم وابنتاها لاضطراب الأب غير المعتاد . . . ولف الجميع صمت لا يخدشه سوى لهاث الأب . . . الذي أخذ بالهدوء شيئاً فشيئاً . . . قطعت الأم الصمت بنبرة إشفاق...

– اجلس يا أبا خالد وارتح قليلاً . . . انك شاحب بشكل مخيف . . .

جلس الأب على الأريكة . . . وهو يملي عينيه بابنتيه المشدوهتين . . . همست نور واجمة . . .

– بابا . . . لقد شغلتنا عليك . . . ألن تطمئننا ! ! . .

فرد بتنهيدة . . . وهو يمسح رأسها :

– بل أنا الذي شغلت عليكما يا روح أبيك . . .

ونظر إلى زوجته – التي كانت ترتعش مضطربة – مطمئناً . . . وأضاف :

– لا عليك يا أم خالد . . . هدئي من روعك . . .

فقاطعته عاتبة . . .

– كدت تقتلنا هلعاً . . . وتقول هدئي من روعك ! ! . . ماذا وراءك ؟ . . ألن تخبرنا ؟ . .

اكفهرّ وجهه من جديد . . . وأسفر بتأثر دامٍ :

— بينما كنت في المكتب علمت أن جثث أربع فتيات . . . مقتولات . . . خنقاً . . . قد وجدت في الحدائق المحيطة بالجامعة . . . فذهلت عن كل شيء . . . ولم أنتبه لنفسي إلاّ وأنا استحث سائق سيارة الأجرة للإسراع أكثر . . . وأكثر . .

صعقت النسوة من قسوة الخبر . . . والتصقت البنتان بأمهما . . . وقد طفرت أعينهما من فظاعة النبأ . . . تحشرجت الكلمات في حلق الأم المبهوتة . .

— ومن قتلهن ؟ ؟ . . ولماذا خنقن ؟ ؟ . .

فتحجرت تقاطيع الأب . . . ونطق أحرفاً جليدية متقطعة وهو يهرب بعينيه من نظرات الصبيتين . . .

— لقد انتُهكن قبل خنقهن . . .

تقلصت سحنة الأم . . . واستجمعت نفسها متأهبة وزعقت بضراوة :

— يا للبشاعة . . . المتوحشون . . . السفلة . . .

في حين دفنت الفتاتان وجهيهما في صدر أمهما . . . وراحتا ترتجفان بنحيب مكظوم . . .

افتقدت الأسرة علائم البهجة عند تناولها الغداء في ذلك اليوم . . . إذ كان الأسى الصاعق يعتصر النفوس . . .

وبعد الغداء قال الأب وهو يتناول فنجان الشاي من يد ندى . . .

– لم يعد هناك أمان في هذا العالم . . . فشريعة الغاب تخيم فوق رؤوسنا . . . وتنمو كالطحالب بيننا . . .

ترددت أنفاس النسوة بصوت مسموع . . . رفع الأب رأس ابنه خالد – الذي أحس بجو القلق – فالتقت عيناه بعيني الصغير اللتين كانتا تبحثان عن شيء من الاطمئنان . . . مسح الأب رأس الطفل ملاطفاً . . . ثم أضاف ناقماً . . . .

– ربما يأتي يوم يجبر فيه الناس على تناول حقن من خلاصة الهمجية والصلافة فهؤلاء الذين يمسكون بخناق العـالم مصرّون على إيجـاد صلة نسب بين الانسان والحيوان . . . فلئن لم يكن الإنسان حيواناً يوماً ما . . . فهم يريدون مسخه حيواناً يوماً ما . . .

فقالت زوجته معترضة :

– أمر يحدث في مدينتنا فما شأن (الذين يمسكون بخناق العالم) به . . . إن تحميلنا الآخرين مسؤولية أخطائنا هو خطأ وسيبقينا في حالة خادعة ومزيفة من الرضى عن الذات . . .

نفخ الأب بعصبية . . .

– يا أم خالد ، لقد غدا العالم صغيراً . . . صغيراً جداً . . . بحيث لن يسمح الأقوياء لسواهم بالتنفس فيه بحرية . . .

ضحك ضحكة واهنة ينفس فيها عن سخرية يائسة وهو يتابع قائلاً . . .

— خوفاً من نقص احتياطي الاوكسجين الاستراتيجي . . . هه . . . أو خوفاً من تلوث الهواء لا بانفجاراتهم النووية ولكن خوفاً من تلوثه بلهاث سكان النصف الجنوبي من الكرة الأرضية . . .

ثم التفت إلى ابنتيه المستغرقتين بمتابعته . . . وقال مشدداً على كل حرف :

— لقد سحق الإنسان . . . بل وسحقت إرادات أمم وكراماتها . . . فها هم أولاء مقتسمو العالم يدأبون لإبقاء الأمم الضعيفة مشلولة ومخدرة . . . ليصفو لهم الجو كي يستنزفوا خيراتها . . . ويستعبدوا شعوبها . . . ويحوّلوا أراضيها إلى قواعد عسكرية متقدمة . . . أو مناطق حرة تزدهر فيها مصانعهم التي يشيدونها في أسواق تصريف مفتوحة.. بالإضافة لاستفادتهم من تدني الأجور والتكاليف في البلدان المسحوقة . . . ويدعون هذا مساهمة في تنمية العالم الثالث والرابع والخامس . . . إيه . . . مسكين هذا العالم المتخلف فهو اليتيم الضائع الغفيان بين يدي اللئام . . . فمن جهة هناك القوى الكبرى تهدده تارة وتغريه أخرى . . . ومن الجهة الأخرى أذناب ربّوا على أرضه ويتكلمون لغته ولكنهم كما يقال (أشد ملكية من الملك) . . . والذين لا يتلكؤون عن

سلخ رأس وطنهم وتحنيط ضميره ... كي يثبتوا لساداتهم في الخارج أنهم أهل للحفاظ على مصالح القوى العظمى في بلدانهم التعيسة بهم ... وأنهم بالتالي يستحقون فترة ركوب إضافية فوق أكتاف المستنزفين من أبناء جلدتهم ...

صاحت الأم برعب مطبق :

ـ ولكن كيف يا أبا خالد ؟ ! .. كيف ؟ ! ..

ـ كيف ! ! .. بتحويلنا إلى شعوب استهلاكية تعيش في مجتمعات استهلاكية ... همّ الفرد فيها مقدار زائد من رفاهية زائفة تخفي خلفها بؤساً مستوطناً ... وليدمن الفرد على جرعة أكبر ... ثم أكبر قليلاً من الكماليات التافهة بينما الأساسيات يشقى الناس ولا يحصلون على كفايتهم منها ... وطبعاً هذا أمر إن بدأ فلن ينتهي ... وشيئاً فشيئاً يفقد المجتمع تآزره ... وتتراخى عزيمته للسير بإرادة موحدة نحو تحقيق أهدافه التاريخية ... ولينقلب المجتمع في النهاية من كائن متماسك ينبض بالفعالية والعزيمة إلى كيس كبير ممتلىء بحشرات ضعيفة وأنانية ... همّها أن تجتر وتجتر ... وكل منها حسب (شطارته) ... وهكذا تكون قد تهيأت الفرص المؤاتية للشرهين الفجرة ... الخارجين وأذنابهم الحقيرين ...

فعندما تحجب يا أم خالد عن شعب ما أهدافه وتغشى عنه رسالته فيجب أن يُلهى بأمور أخرى تستنفد ما قد يكون تبقى له من طاقة ... وإلاّ فإن تركز الطاقة الاجتماعية

الفائضة المستمر سيؤدي في النهاية لانفجارٍ . . . بل وزلزال يدك مطامع الغاصبين . . .

همست الأم وهي تحملق في الفراغ :

– الآن . . . الآن عرفت معنى تلك الصفوف الطويلة أمام مراكز توزيع مواد المعيشة الأساسية في الدول المكبوتة . . . وذلك الانتظار المتطاول على مواقف الباصات . . .

ألقت برأسها على كفيها وقد جحظت عيناها :

– إنهم يسرقون طاقاتنا . . . إنهم يسلبوننا أوقاتنا. . . إنهم يغتصبون أعمارنا . . . أكل هذا مخطط له يا أبا خالد ؟ ! . إن رأسي تتصدع . . .

– طبعاً يا أم خالد . . . طبعاً . . . هذا كله يعرفه وينفذه نهابو العالم وأجراؤهم . . . فلا غرابة أن نجد أحدهم يعلنها صريحة وقحة . . . فيقول مخاطباً جماهير الملايين من المقهورين الذين يستعبدهم ويستثمرهم لحساب ساداته الشرقيين والغربيين . . . (لقد أبحنا لكم الخمر والجنس فدعوا لنا السياسة) . . . وهكذا يا أحبائي ليس مصادفة أن نجد الاستغلال والاستبداد يمهدان لنفسيهما . . . ويوطدان لاستقرارهما بإشاعة موجة جارفة من الانحلال الخلقي والاجتماعي . . . وبتأجيج الشهوات وتسعير الغرائز بكل وسيلة . . .

نفرت نور برأسها . . . وقالت بمضاء :

ــ نعم يا أبي . . . إن تحليلك للأمور رائع . . . وإننا لنجد الانحلال الخلقي . . . والانهيار العام للضوابط الاجتماعية أشد تركزاً في دول المعسكرين المتنافسين . . . الشرقي والغربي . . . وهذا طبيعي تماماً . . .

ففي ظل الأنظمة ذات الدكتاتورية الجماعية يجهد التكتل المتسلط لتعطيل مَلَكة النقد والإبداع . . . وتحويل مواطنيه بالتالي إلى مجرد طاقات عمل . . . يوظفها في مشاريعه ومخططاته . . . وإذا اقتضى الأمر فعليها أن تصفق له سواء في انتصاراته أو هزائمه مهما كانت شنيعة . . . أو أن تبصق على أعدائه عندما تؤمر بذلك طبعاً . . . وبانتهاء يوم من الاسترقاق تدار الجماهير إلى زرائب الخمر والجنس بانتظار يوم آخر من الاستعباد . . . أو حفلة التصفيق أو التبصيق القادمة . . .

أما في ظل الأنظمة التي توصف بالديمقراطية الغربية . . . فالأمور لا تقلّ بشاعة . . . فهناك الأسر المالية الضخمة والمعدودة . . . والتي تدير ومن خلف مئات الأسماء والمؤسسات الحركة الصناعية والتجارية . . . وبالتالي تتحكم بالنشاط المالي في منطقة نفوذ تصل الى كل بقعة يمتد إليها نشاطها أو نشاط الدول التي تحمل تلك الشركات جنسياتها وبالتالي تتمتع بحمايتها . . .

أسندت الأم خدها إلى كفها وهي تتابع نوراً مندهشة . . .
وتسائل نفسها . . . متى تعلمت يا ابنتي كل هذا ! . . أكل
هذا يعلمونه في الجامعة ؟ ! . . أتراهم يعلمون هذا في الجامعة؟!

لمعت عينا نور . . . التي تابعت شارحة بروية :

– ولكن الحقيقة أن هذه المؤسسات المالية الجبارة هي
التي بيدها أزمة كل شيء في الأنظمة الغربية . . . بل ولم يعد
مستغرباً اكتشاف آثار هذه المؤسسات حتى في المناطق الشرقية
ذات الصباغ الأحمر . . . وبالتالي فإن نفوذ هذه التكتلات
المالية الدولية ، يجرف تلك الأنظمة الدائرة في فلك الغرب سواء
منها تلك التي تجاهر بتبعيتها للجاهلية الغربية . . . فتلهج بحمدها
من وراء المنابر . . . أو تلك التي تقبض في الخفاء لتشتم في
العلن لأمرٍ تقتضيه مصلحة الغرب . . . وبالتالي مصلحة تلك
الشركات التي يخدم الغرب نفسه في الحقيقة مصالحها . . .

فهذه المؤسسات المالية تشتري الصحف . . . ووسائل
الإعلام . . . والنواب . . . وكبار الموظفين . . . وتلقي بثقلها
في الحملات الانتخابية لتوصل إلى مراكز التأثير من تراه أميناً
لخدمتها . . . ولا تنسى في طريقها لأن تضمن ولاء كبار
القادة العسكريين . . .

وهكذا تتحول الأنظمة إلى آلات جبارة ... تدّعي حماية مصالح مواطنيها ... ولكن حقيقة الأمر أنها مسخرة لحماية مصالح كبار الممولين ...

ونعود مرة أخرى إلى مأساة الجماهير المخدوعة ... لنجد الأساليب عينها تتبع... خمر... وجنس... وإدمان على المخدرات أو عقاقير الهلوسة ... بالإضافة لمحاولات سخيفة لإفراغ الطاقة الروحية الفطرية ... بصرعات مشبوهة لا تتفق مع عقل ولا علم ولا فطرة ...

فغرت ندى فاهاً مذعورة :

ــ إذاً فالإنسان مخدوع ... مخدوع ... سواء عاش في قبضة الدكتاتورية الجماعية ... أو الأنظمة الغربية ... بالإضافة لبؤسه ... غير الملطّف تحت وطأة دكتاتوريــات القهر والإرهاب في العالم الثالث ... يا إلهي لقد أصبح هذا العالم غير محتمل ...

حكّ الأب رأسه ... وقال مخاطباً زوجته :

ــ أنا سعيد أن لي ابنة بهذا الوعي والعمق ...

ثم التفت إلى ابنتيه ... قائلاً :

ــ في الحقيقة لم أكن أثناء دراستي الجامعية مهتماً إلى هذا الحد بما يجري في العالم رغم أن المنهاج الدراسي لكلية

الحقوق أمسُّ رحماً بتلك الأمور . . . ولكن ليس لنا أن نذهب في تشاؤمنا بعيداً .

هنا قاطعت ندى أباها . . . وهي تشير بيدها تستميحه عذراً أن قاطعته . . . فهز رأسه مبتسماً ومشجعاً ابنته الصغرى لتبدي رأيها . . . فاندفعت منفعلة . . .

ــ أبداً لا يجوز لنا اليأس . . . ومهما عظم الانحراف فلا بد أن ينتصر الإسلام . . . وسيسود عندها على الأرض السلام والنظام . . . ويشيع الأمن يومها بين الناس . . . والرسول صلى الله عليه وسلم بشرنا بهذا . . . حيث قال صلوات الله وسلامه عليه . . .

. . . « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذلّ ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر »[1] . . .

نعم فكوكبنا كله ساحة يتوالى عليها الليل والنهار . . . ورسول الله يخبرنا بحديثه الصحيح أن نصر الإسلام سيعم كل بيت على هذه الأرض . . . وسينتكس الكفر ذليلاً حقيراً . . . وحتى يومنا هذا لم يتحقق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا . . . ولكننا كمسلمين نؤمن أن ذلك اليوم ــ الذي

---

(١) رواه احمد والطبراني . قال الهيثمي رجال احمد رجال الصحيح .

ترتفع فيه ألوية الإسلام الظافرة فوق الأرض كلها – لا بد آتٍ . . . ليعيش المسلمون الذين سيشكلون عندها الغالبية العظمى من البشرية في أمن وعزة يحكمهم دين الله وحده . . . ويخنس وقتها الكفر وتذل راياته وينكمش ضئيل الأتباع مهيض الجناح . . .

ولا يجوز لنا ما دمنا مصدقين بنبوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ أن نوقن حق اليقين بتحقق هذا النصر الشامل في المستقبل حقيقة لا مماراة فيها . . . وإني لأرجو من الله أن يكون نصراً قريباً نراه ونعيشه . . .

ربت الأب على رأس ندى بفخر . . .

– إني معتز بكما يا ابنتيّ . . . فأترابكما لا يدرين من الحياة سوى عادات يومية رتيبة . . . وأنتما مشغولتان بالعالم ومشكلاته ومستقبله . . . إن أباً له ذرية مثلكما لا بد أنه محظوظ يا قرة عين أبيكما . . .

نقّل عينيه في الفتاتين اللتين أطرقتا حياءً لإطراء أبيهما لهما . . . كما كان تشجيعه قد شحنهما ثقة واعتداداً بالنفس . .

وغمرت الأم سعادة عميقة نابعة من الجو العائلي المتآلف والدافىء . . . ولشد ما كانت تُسَرُّ لحرص زوجها على مساعدة ابنتيه في بناء شخصية سليمة ومتينة . . . وإن كانت هي أيضاً لا تقل عنه دأباً لتنمية الجرأة والصراحة في نفسيهما . . .

عبّ الأب ما تبقى من شايه الذي كان قد برد ، وانطلق يشرح تصوره لمستقبل الصراع بين الخير والشر . . . بعدما لمس من ابنتيه فهماً ومشاركة على مستوى رفيع :

– طبعاً لقد حز في أنفسنا العمل الوحشي والمشين الذي تعرضت له أولئك الفتيات المغدورات . . . وبالإضافة لتجريم السفاكين السفلة أيّاً كانوا . . . لا مناص من تحميل المسؤولية الكبرى لمن هيأ البيئة النفسية والسلوكية للأفراد ليستبيحوا الإيغال في أعراض الناس ودمائهم . . .

وفي المقدمة يأتي من أوهن ويوهن بإصرار دور الدين كضابط خلقي . . . ومنظم للسلوك الاجتماعي . . .

وفي المقدمة يأتي أيضاً من يغرق الإعلام الشعبي بالمواد الرخيصة الهابطة . . .

ونحن إن درينا بهذه الجريمة . . . فلا بد أن عشرات الجرائم الرهيبة تمر في معزل عن سمعنا وأبصارنا . . . وكي تشكلن تصوراً عن مدى الفاجعة الاجتماعية التي يئن من قسوتها الإنسان في هذا العالم سأحدد لكنّ بعض أبعاد المأساة . . .

زفر بأسى بالغ وهو يتابع :

– تصورن أن بلداً كألمانية الغربية تُغتصب فيه امرأة كل ربع ساعة . . .

اشمأزت النسوة بمرارة ... وهتفن معاً ...

– ياه ... أية حياة هذه ... فظاعة ...

– شيء مخيف أليس كذلك ؟.. ورغم ذلك فليس هذا كل شيء ...

قاطعته ندى ممتعضة :

– أوهناك ما هو أكثر ؟ !..

– نعم .. نعم .. لقد ترجمَتْ الإحصاءات في الولايات المتحدة الأميركية الهوة السحيقة التي يتخبط فيها ذلك المجتمع المادي ... وكشفت حالة الاضطراب الاجتماعي العنيف الذي يتفاعل ويتلاطم في أركانه ...

فكما تدل الإحصاءات الحديثة تقع في الولايات المتحدة الأميركية :

حادثة سرقة كبيرة كل دقيقة ...

وتغتصب فتاة كل خمس دقائق ...

وترتكب جريمة قتل كل عشرين دقيقة ...

فصرخت الأم مذهولة :

– أبا خالد ... أإلى هذا الدرك سقطوا ؟.. لا ... لا يمكن أن يهنأ البشر في هذه الظروف الشرسة مهما امتلكوا من الأشياء ...

نفخ الأب بحزن . . . وأجاب موافقاً :

– نعم يا أم خالد . . . لن تهب الأشياء ما يرجوه الإنسان من سعادة . . . إن أولئك أفراد ذلك المجتمع المتفسخ تعساء في مجتمع تعيس . . . فما بالك في مجتمع تثخنه المخدرات جراحاً قيمتها واحد وخمسين ألف مليون دولار هذا في العام الواحد . . . فضلاً عن المآسي الإنسانية المفجعة . . .

فلا تجزعي إن علمت أن لديهم عشرين مليوناً من المرضى العقليين سنوياً وكل هذا في الولايات الأميركية فقط [1] . . .

فقالت نور مستدركة :

– أتوقع يا أبتِ أن المشكلة ليست مشكلة شعب ما . . . أو دولة ما . . . ولكنها أمراض المجتمع المادي أينما وجد . . .

– فعلاً يا نور . . . لقد أصبت يا ابنتي . . .

ثم التفت أبو خالد إلى ندى قائلاً :

– وأما ما ذكرتنا به يا ندى من أن النصر النهائي والشامل سيكون للإسلام . . . فإني أوافقك طبعاً . . . لأنه ليس لي ما دمت مؤمناً إلا الجزم بأن ما بشر به رسول الله صلوات الله عليه وسلامه هو حق لا مرية فيه . . .

---

(1) جميع الاحصاءات والارقام هي حقيقية ومستقاة من مصادر اعلامية .

هذا فضلاً عن الوعود الكثيرة القاطعة التي ذكرها ربنا تبارك وتعالى . . . وتعهد فيها بإظهار دينه على جميع الأديان ... وبإعطائه جلّ ذكره مقاليد الحكم في الأرض لمن يقيم فيها أحكام كتابه وإسلامه سبحانه وتعالى . . .

ومن الزاوية الأخرى فالإنسان الذي يعيش في خضم المعاناة ملّ واقعه . . . وبدأ يتطلع للتغيير . . . وهذا حق مشروع له . . . ففقدان الأمان إضافة . . . للقلق الدائم من أخطار متوقعة . . . بل ومشاهدة القيم المألوفة بالنسبة للإنسان المادي تتهاوى دون أن يخلفها بديل مقنع . . . كل هذا يدفع الضمير الاجتماعي هناك دفعاً للبحث عن قناعات صلبة ومتينة ليشيد عليها حياة مستقرة وكريمة . . .

وهذا هو ما يخيف مستثمري العالم . . . فهم يخشون أن تتملص من أيديهم شعوب العالم الصناعي التي يوظفونها كرأس حربة مصلتة على رقاب الشعوب الضعيفة . . .

كما ويخشون أن ترتفع رايات جديدة قادرة على استقطاب شعوب العالم الصناعي وشعوب العالم أجمع . . . وتمثل لهم مدخلاً إلى بشرية كريمة وعادلة . . . بشرية راشدة . . .

لأنهم سيفقدون عندها كل شيء . . . لأنهم سيخسرون -- بانضواء جماهير النصف الشمالي من الكرة الأرضية تحت تلك الرايات الجديدة — العبيد الذين يسخرونهم ليستحلبوا لهم ثروات البشرية . . . بل ويسرقون منها حتى قوت يومها ...

لذا فإن نهابو العالم منكبون لصرف اهتمام الإنسان عن حقيقة مشكلاته . . . وإبعاده عن الأسلوب العملي لحلها . . .

وبنفس الوقت فهم لا يدخرون جهداً لتشويه ما يحتمل أن يكون هو القناعات الجديدة . . . بل وإبادة دعاته ومفكريه.. سواء بأيديهم هم مباشرة . . . أو بأيدي أذنابهم الحقيرين وهذا أقل إحراجاً لهم . . . .

ولكن ورغم كل شيء . . . فقد أصبح البحث عن البديل يدور بصوت مرتفع وجريء . . . حتى من داخل قلاع القوى العظمى وفي عقر دارها . . .

لمعت عينا الأب . . . وانبسطت أسارير وجهه . . . وهو يضيف بإصرار :

– فها هو الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان وهو النصراني.. يجاهر برفضه الشيوعية . . . كما يرفض النظام الحر ولا يخجل من التصريح بأنه لا يعتبر (ديمقراطيته الفرنسية) التي ينادي بها . . . إلا حلاً موقتاً وإقليمياً يقتصر على فرنسا . . .

ثم يجزم بأنه لا بد من وجود فكر حضاري له جانب من التصور الروحي . . . ويبشر بأن هذا الشعاع الحضاري الضروري لإنارة العالم لا بد أن يأتي . . . وإن كان ديستان يقول إنه لا يعرف ما هو . . .

له هو أن يتجاهل تحديد هوية هذا الفكر . . . فهذا شأنه . . .

ولكنني أمتلك قناعة راسخة أن الإسلام هو عقيدة البشرية العالمية في المستقبل .

وسيكون الإسلام حتماً هو الأمل الذي ينشده أمثال ذلك المنشق الرافض للنظام الشيوعي الروسي الوحشي . . . والذي ما إن عايش النظام الرأسمالي الغربي بضعة أشهر حتّى وقف يعلن على رؤوس الأشهاد في الغرب . . . أنه كفر بالنظام الغربي كما سبق له أن كفر بالنظام الشيوعي . . . ويؤكد أن الإنسان يحتاج لنظام عادل ومغاير لكلا النظامين . . .

وأنا على يقين أن هذا العالم البديل العادل الذي تهفو إليه النفوس . . . هو الإسلام . . . دين الله العظيم . . .

وصدق الله العظيم . . . « إن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . .

طفرت دموع الأم من الفرح . . . واندفعت نور وندى في تصفيق طويل . . . وقد تملكتهما بهجة منعشة بسبب حديث أبيهما . . . وهمست ندى خلسة في أذن أمها . . .

يا لفرحتي لقد انضم بابا حقاً إلى مواكب الإيمان . . .

انتبه الأب أن وشوشتها تدور حوله . . . فضبطها ضاحكاً..

ــ وماذا تحكين لي أيتها الباحثة ؟ ! . .

فردت مداعبة بعفوية :

– إنك تستحق يا بابا . . . صندوقاً كاملاً من البرتقال . . وسآتيك الآن بعينة منه . . .

شاب فرح الأم شيء من الخوف . . . فسألت زوجها . . وهي تخشى أن تُسرق فرحتها منها . . . .

– ولكن يا أبا خالد . . . من أين للإسلام أن ينتصر . . . وأعداؤه أكثر قوة منه ؟ ! . .

فمن أين للإسلام القنابل الذرية ؟ ! . . والغواصات الذرية ؟ ! . . . والصواريخ ذات الرؤوس النووية ؟ ! . . والصواريخ عابرة القارات ؟ ! . . والطائرات المتطورة ؟ ! . . والقنبلة النيترونية ؟ ! . . . و . . . و . . . و . . .

ثم إن عليه أن يواجه القوى المعادية كلها . . . وهي تشمل كل القوى اللاإسلامية . . . فهل . . . هل يستطيع ؟ !

أقنع التساؤل المتخوف نوراً . . . فهزت رأسها موافقة وقد ارتسمت إمارات القلق على وجهها من هذا التساؤل المباغت والذي ما خطر لها قبلاً . . .

رجعت ندى على عجل لئلا يفوتها شيء من الحديث . . . وقد أحضرت بعض البرتقال . . . وأعلنت هاشة وهي تجلس بقرب أبيها . . .

– هذا عربون محبتي لأعظم والدين في العالم . . .

ضحك الجميع . . . وقالت الأم بعطف :

ـ سلمت يداكِ يا ندى . . . هيا قشري برتقالة لأبيك . . .

عاد الاهتمام إلى وجه الأب . . . وشعّ من عينيه بريق الثقة . . . مما دفع نوراً للتنفس براحة . . . إذاً فالأمر ليس بهذا التعقيد الذي تصورته . . . استفهمت ندى من نور عما دار أثناء غيابها القصير . . . فأخبرتها نور باقتضاب عن رأي أمها . . . الأمر الذي أهمّ ندى أيضاً . . .

أراح الأب نفسه . . . ملقياً بظهره على المقعد . . . والتفت إلى الأم مجيباً بتفاؤل مكين . . . وقد بدا التصميم على وجهه :

تذكري يا أم خالد أن هناك مليار مسلم في هذا العالم . . . أي ربع عدد البشرية هم يدينون بالإسلام . . . وإن كان معظمهم في واقع الأمر بعيداً عن حقيقة الإسلام . . . بل وجاهلاً بها . . . فالمهمة تقتضي عودة علمية للإسلام . . . عودة شاملة وعلى مستوى الألف مليون مسلم في هذا العالم . . . وهذا يعني القيام بحملة تربوية واسعة لا تكتفي بتعريف المسلمين بإسلامهم . . . وماذا يعني كونهم مسلمون . . . بل وإقناعهم أيضاً بتحقيق إسلامهم عملياً . . . أي تحويلهم الى مسلمين يعيشون الإسلام فعلاً . . . وهذا ما يقتضيه منهم كونهم مسلمون شرعاً . . .

أما الإنسان الآخر الذي ما اعتقد الإسلام ولا عرفه فالأمر أيضاً ليس مستحيلاً . . . فالإنسان في هذا العالم لديه مشاكل

تعتصره . . . وتبقيه في أزمات خانقة لا تنقشع . . . والسبب هو الأنظمة الفاسدة التي يعيش فيها . . . بل والسبب قبل ذلك يكمن في المنهج الفكري الذي قامت تلك الأنظمة استجابة له ...

وهذا الإنسان . . . يا أم خالد . . . يسعى بمباشرة أو بشكل غير مباشر لإيجاد بديل قادر على إنهاء مشاكله وبناء حياة سعيدة . . .

وقناعتنا بأن الإسلام هو البديل الكفء الوحيد . . . لا تكفي . . . إن لم نقم بإقناع الإنسان . . . كل بني الإنسان في العالم . . . أن منهج الإسلام هو دين الله . . . وأنه يقدم حلولاً عملية وعلمية لإنقاذ البشرية من معضلاتها . . . ولتنظيم حياة كريمة وإنسانية . . . ينعم كل إنسان بخيراتها وأمنها . . .

هتفت نور بحيرة :

– ولكن كيف . . . كيف نصل إلى هذه النتيجة يا أبي ؟ . . .

– حسناً . . . سأوضح لك بمثال من تجربتك . . . لنتذكر كيف كنا منذ أشهر . . . وكيف كنت تفكرين يا نور ! . . وأنت يا ندى ! . . أما والدتكما فقد استغرقها المنزل وشؤونه ..

وأنا ؟ . . نعم قبلاً اعترف أن في الإسلام أموراً جميلة .. وهذا كل شيء . . . أما حياتي وأفكاري وآمالي . . . فكانت في وادٍ آخر . . . وفجأة بزغ في حياة أسرتنا فجر جديد . . .

نعم كان ذاك يوم تعرفت بصديقتك المؤمنة يا نور . . .
وكانت البداية . . .

وسأصارحكما كما تعودنا دوماً . . . لقد تابعت بشغف كل تطور لديكما نحو التزام سبيل الإسلام . . . يوماً فيوماً . . . ومع تتالي زيارات مي لكما . . . إذ كنتما وأمكما لا تتركن يوماً يمضي إلاّ وتخطين فيه خطوة إلى الأمام . . .

وأنا أيضاً لم أوفر كتاباً إسلامياً . . . استعرتماه من صديقتكما . . . أو اشتريتماه إلاّ وانكببت عليه دراسة واستزادة . . .

وشيئاً فشيئاً . . . كان عالم جديد . . . وحق بديع . . . يتكشفان لي . . . وبعد كل كتاب درسته لم أبق أنا نفسي قبل دراسته . . .

كما لاحظت بسعادة أن أموراً ما . . . تسير نحو الأفضل لدى قريباتكما اللائي كن يبادلنكما الزيارات . . . وهكذا يا نور ستتسع الدائرة . . . ويفشو الإسلام في المجتمع . . .

إننا لا نحتاج كي ننشر دين الله وإقامة شرعه إلى قنابل ذرية ، أو وسائل عنف . . .

كل ما نحتاجه في البداية إنساناً آمن بالإسلام والتزمه مخلصاً في حياته كلها ظاهراً وباطناً . . . وانطلق جاهداً ليوصله ناصعاً متوهجاً إلى الآخرين . . . مزيلاً في الوقت نفسه ما

يمكن أن يحجب بعض الناس عنه من شبهات . . . أو شوائب جاهلية في نفوسهم . . .

وهكذا وبأسرع مما قد يتوقع المرء . . . سينمو ضمير شعبي ساحق . . . يعي حقيقة الإسلام . . . ويهفو إلى واقع إسلامي نقي . . .

ولن تلبث هذه الإرادة الشعبية . . . وفي بقع متباعدة من الأرض أن تنمو . . . وتنمو . . . وستتلاقى المسافات البيضاء على الخارطة . . . فيكون الضمير الإسلامي قد انقلب عندها إلى إرادة إسلامية عالمية . . .

ولن يقف في وجهها شيء . . . ولو كان هذا الشيء هو جماع القوى الكافرة . . . والوثنية المعاصرة كلها . . .

تخلت الأم عن مخاوفها . . . فقد انقشع الإشكال الكبير من فكرها . . . وقدمت لزوجها برتقالة وهي تتأمله بغبطة . . . فهكذا فليكن الرجال . . . همم تتحسس مشاكل العالم وتعمل لكشف حلولها . . . واهتمامات تعانق السماء . . .

عصرت نور كفها . . . وتبادلت نظرات مرتبكة مع ندى . . . ثم أفصحت معترفة لائمة نفسها :.

ــ كلامك حق يا أبي . . . ولكنني وندى شاعرتان بتقصير مريع . . . هنالك أمور كثيرة من الإسلام لم نلتزمها بعد.

توقف الأب عن مضغ قطعة برتقال . . . وقال مواسياً :

– لا تتعجلا . . . فلا أحد يستطيع الانعطاف زاوية مستقيمة بطرفة عين . . . فإن المنبت لا أرضاً قطع . . . ولا ظهراً أبقى . . .

همست ندى خجلة من تقصيرها :

– بل إن ما تقصده نور . . . هو أمر آن لنا تطبيقه. . .

– حسناً . . . ولِمَ لا تطبقانه إذاً ؟ . . القناعة على ما يبدو متوفرة لديكما والحمد لله . . . فهل تنقصكما الإرادة!.

قالت نور مستدركة :

– أبداً يا أبتِ . . . إرادتنا حاسمة إن شاء الله . . . ولكن الأمر يتوقف عليه . . .

وهنا قاطعتها الأم ضاحكة :

– إنهما يا أبا خالد تريدان أن تشرحا لك نظرية قرص العسل . . .

رفع الأب حاجبيه باشّاً . . . والتفت إلى ابنتيه . . .

– حقاً ! . . لا شك أنها نظرية مفيدة . . . فالعسل فيه شفاء . . .

حزمت نور أمرها . . . وشرحت لأبيها قصة نظرية قرص العسل التي لقنتها إيّاها رولا . . . وأخبرته أنها عندما حكتها لي . . . ضحكت وقالت لها . . . من يريد الحفاظ على عسله

فليحجبه عن متناول الحشرات والعناكب . . .

أعجب الأب بحصافة مي ، وقال :

— إنها حكيمة هذه المؤمنة التقية . . . إذاً تريدان ثمن غطائي رأس . . .

فردت نور بأدب :

— لا يا أبي . . . ليس هذا ما نحتاجه . . .

وأكملت ندى وهي تقدم لأبيها كتاباً عنوانه «الحجاب ».

— لقد أعارتنا أختنا مي هذا الكتاب . . . وفيه حاجتنا . . .

أمسك الأب الكتاب باهتمام . . . وأردف :

— أعدكما أن أقرأه . . . ولكن أخبراني . . . ما المطلوب مني إذاً ؟ . .

فقالت الأم مخاطبة زوجها . . . وهي تحمله على الموافقة ...

— تريدان ارتداء جلباب سابغ فضفاض . . . وخمار للرأس . . .

اجتاح الأب فرحٌ لاهب . . . وقال بسعادة وخشوع لله :

— الحمد لله . . . الحمد لله . . . طالما تمنيت هذا . . . ولكنني آثرت ترك الأمر لقناعتكما . . . فاستجاب الله لرجائي . . .

همست نور :

– ولكننا نخشى يا أبي أن نسبب لك ضيقاً مالياً . . . فهذا قد يكلف . . .

لم يدعها الأب تكمل جملتها . . . وقال حازماً :

– بل سنشتري ما تحتاجانه من القماش الآن . . . ونضغط مصاريفنا بعض الشيء بقية الشهر . . . وفي أول الشهر القادم سندفع أجرة الحياطة . . .

فهتفت الفتاتان . . . يغمرهما الحبور . . . .

– حفظك الله لنا يا أبي . . . حفظك الله لنا يا أمي . . .

واندفعتا تقبّلان يدي والديهما . . . وسط بهجة عارمة صهرت الجميع . . . وأيقظت خالداً . . . الذي دخل الغرفة مستطلعاً . . . وهو ما زال يفرك عينيه من آثار النوم . . . ويردد بوداعة . . .

– السلام . . . عليكم . . . السلام . . . عليكم . . .

ثم ركض ملقياً بنفسه في حضن أبيه . . . الذي قبّله . . . وأكبت الأسرة عليه تداعبه . . .

الفَصْلُ الخَامِسُ

إن عُرِفَ السَّبَبُ بَطَلَ العَجَبُ

« ما دام هذا القرآن موجوداً بين أيدي المسلمين فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي نفسها في أمان » . . .

غلادستون رئيس وزراء بريطانيا السابق



استيقظت رولا صباحاً على صراخ أخيها سامر وهو يزعق طالباً من أبيه عشر ليرات . . . فتحت عينيها بصعوبة ونظرت إلى الساعة . . . ياه . . . إنها ما تزال السابعة ، ومحاضرتها الأولى لن تبدأ اليوم إلا في العاشرة . . .

حاولت العودة لأحلامها . . . فتناومت . . . ولكن الزعيق الواخز أجبرها على مغادرة السرير متكاسلة . . .

خرجت من غرفتها فوجدت والديها جالسين واجمين . . . وأخاها يصيح شاتماً ومهدداً . . . إن لم يعطياه عشر الليرات . . . فقالت وهي تعبر الردهة . . . دون أن تنظر إليه . . . متقصدة إغاظته . . .

– كفاك ندباً . . . إنها ما تزال السابعة . . . أكنت تحلم بعشر الليرات في منامك . . . ؟

فنهرها صارخاً :

– اهتمي بأمورك ... ومن الذي أيقظك أنت ! ..
عودي لنومك وأريحيني من خلقتك ...

ردّت مستخفة ... وهي تمشي بازدراء ...

– نحيب البوم الذي أزعجني ... بل وأزعج أهل الحيّ ... أيها البوم ...

تميز غيظاً ... وانقضّ عليها ... جذب شعرها بقسوة من خلف ظهرها ... فصرخت بوحشية من الألم ... واستدارت نحوه ... تسبه حانقة وهو يهز رأسها من شعرها بعصبية ... استجمعت نفسها ولطمته على وجهه ... فأنشب يده الأخرى في وجهها ... بينما راحت تلطمه بشراسة على بطنه ووجهه ...

هب الوالدان مذعورين ... ليخلصا الفتاة من قبضتيّ أخيها ... ولكن الأحمق أخذ يرفس برجليه نحوهما ليبعدهما عنه ...

جذب الأب سامراً من شعره بيد ... وأحاط عنقه بذراع يده الأخرى ... ليبعده عن رولا ...

سيطر الرعب على الأطفال الصغار ... فتراكضوا إلى تحت السرير – مخبئهم المعتاد – وأخذوا يتابعون المعركة بعيون مرتعشة وجافة ..

فصل الأب الولدين ... وقاد ابنته وهو يلهث بصعوبة

إلى غرفته . . . ألقت الأم لسامر عشر ليرات . . . وهي تؤنبه بصوت مرتعد :

ــ خذ . . . خذ . . . هذه عشر ليرات . . . ولكن اعلم أنها ثمن طعام إخوتك اليوم . . . اذهب واصرفها على سجائرك وأصدقائك . . . أما نحن فسنأكل خبزاً وزيتوناً . . .

أصلح سامر من هندامه . . . وقد انطفأ سخطه . . . بعدما حصل على ما يريد . . . ورغم ذلك لم يبخل بإلقاء ما تبقى من شتائمه الصباحية يمنة ويسرة . . . وهو يكيل لرولا اللعنات.. وقبل أن يخرج من المنزل دلق على نفسه القطرات الأخيرة من زجاجة عطر يستعملها في الأيام الحاسمة ! . .

ثم غادر المنزل مسرعاً . . . صافقاً الباب وراءه بشدة . . .

جلست رولا مع والديها . . . وبعد أن سكنت انفعالاتهم بعض الشيء . . . سأل الأب رولا ملطفاً من لهجته . . . ليمهد لحديثه متمنياً أن يلقى هدوءاً ورفقاً من ابنته . . .

ــ لا تحزني يا ابنتي . . . فما زال في سن الطيش. . .إنني ووالدتك نريد أن نعرف رأيك الأخير . . .

فقاطعته هائجة وهي ترفع صوتها :

ــ رأيي الأخير ! ؟ ! . وبخصوص ماذا ؟ ! . .

قالت الأم بنفاد صبر :

– ما هذا التجاهل يا رولا ! . . إنك لتعلمين أن الأستاذ نبيل ينتظر قرارك . . .

انتهرت رولا أمها زاعقة :

– أستاذ نبيل . . . أستاذ نبيل . . . قلت لكم ألف مرة . . أنا سأتخرج طبيبة . . . ثم تقولون لي أستاذ ! . . وماذا أفعل بمدرّسكم هذا ؟ ! . .

سكنتها الأم مطيبة لخاطرها :

– يا ابنتي والله لا نريد إلاّ خيرك . . . إنه زمان فاجر . . . والسترة خير لك أنت ! . .

– طيب تريداني أن أتزوج . . . حسناً . . . سأتزوج ولكن غنياً كبيراً . . . أريد شقة فاخرة . . . أريد سيارة فارهة . . . أريد أن أعيش كأميرة . . . أسمعتما ؟ . . أما أستاذ فلا . . . وألف لا . . .

اشمأز الأب من استهتارها بالأستاذ نبيل . . . فنبهها غاضباً :

– اسمعي إن كنت لا ترغبين بالأستاذ نبيل فهذا شأنك . . ولكنني لا أسمح لك بالإساءة إليه . . . إنه رجل شريف وعصامي . . . ويستحق كل خير . . . شاب مؤدب ، وإن كان بسيط الحال . . . فالمال ليس كل شيء . . . أفهمت؟ المال ليس هو المهم . . . ولكن الإنسان هو الأساس . . .

أتعلمين ما كان يملك أبوك حين زواجه ؟ . . اسألي أمك . . .
نعم لم أكن أملك سوى جهدي . . . ثم أصبح لنا كل شيء . . .
تحسن وضعي في العمل . . . وامتلكنا بيتاً . . . وأنجبنا أولاداً . .

ثم أضاف متحسراً . . . وهو ينظر إلى زوجته يبادلها التأسف :

– وإن نكن لم نحسن تربيتهم . . .

فأكبّ عليه أطفاله الصغار يتمسحون به . . . معاتبين . . .
وهم يقبّلون يده ورأسه . . . وكأنما يخففون عنه وعن والدتهم.
ما يلاقيان من عناء من سامر ورولا . . .

نهضت رولا لتعود إلى غرفتها . . . فأعادت أمها عليها السؤال طالبة منها التريث قبل أن تقرر بشكل نهائي . . . إلاّ أن رولا صرخت موتورة :

– لقد قلت لا . . . لا . . . لا . . . دعوني وشأني . . .
وضعوا في حسبانكم أني . . . طبيبة . . . طبيبة . . . أفلا تفهمون ؟ ! . .

فانكمشت الأم على نفسها واجمة . . . وقال الأب مستكيناً :

– لك الخيار يا ابنتي . . . لك الخيار . ولكن ترفقي بوالدتك الضعيفة . . . ولا تغضبي بسرعة . . . ألا يكفي ما نلاقي من أخيك ؟ . .

خرجت رولا من الغرفة متأففة . . . لتعد نفسها للذهاب إلى الجامعة . . .

• • •

حملق أبو زياد في الشاب الذي دخل دكانه . . . وخطر له أنه سبق وقابله . . . اقترب الفتى طلق الوجه . . . وحياه بصوت واضح :

– السلام عليك أيها العم . . . أرجو ألاّ أكون قد شغلتك عن عملك . . .

ردّ أبو زياد السلام بتأنٍ . . . وهو يستعيد تلك الصورة في ذهنه . . . لعله صديق ابني زياد . . . لكن ومتى كان لابنك رفيق بهذا الخلق البادي طيبه ! . . بل ويبدو عليه أيضاً سيماء الصلاح . . .

– خيراً . . . ألك حاجة أقضيها لك ؟ . . يا بني . . .

نطقها أبو زياد بتلذذ . . . يا بني . . . آه . . . ليت لي ولد مثله . . . متى تعقل يا زياد وتصبح رجلاً وتعينني في الدكان ؟ . .

– خير إن شاء الله يا عم . . . إنني أبحث عن عمل . . . وقلت في نفسي ربما أجده عند العم أبي زياد . . .

قلّب الكهل نظره في الشاب ... وسأله دون أي يجيبه عن سؤاله :

إذاً فأنت تعرفني من قبل ! .. ولكن كيف ؟ ! ..

أجاب الشاب متردداً ... فهو يعرف ضيق أبي زياد برفاق ابنه واستهتارهم ...

– نعم يا عم ... فأنا صديق زياد ...

أصيب الرجل بخيبة أمل ... توسمت فيه سيماء الصلاح !. أي صلاح هذا ؟ ! .. وهو ممن تعلم ... من أصدقاء ابنك ... أنسيت الخمر في بيتك أيها الرجل ... ثم يظهر الأدب الآن ... لا بد أنه مخادع متصنع ...

أضاف الشاب مستدركاً :

– أرجو ألا تسيء الظن بي ... فقد تبت إلى الله ... وأرجو أن يكون قد عفا عني فهو غفار الذنوب سبحانه وتعالى..

حملت نبرة الشاب المطمئنة أبا زياد للوثوق به ... ولكنه قال منتقماً :

– أكنت يوم الخمر ؟

– ولكنني لم أشرب معهم ... فقد كنت تائباً من قبلها..

ارتاح أبو زياد للشاب ... وشعر أنه مرغم على تصديقه ..

– ما اسمك يا فتى ؟

- مهند . . . !

جلس أبو زياد . . . وطلب من مهند الجلوس . . . وبشره أنه يحتاج فعلاً لمن يعتمد عليه في أمور العمل . . . فرغم وجود عدد من العمال لديه إلاّ أن إمكانات التطور عندهم ضحلة . . . فهو يريد معاوناً فطناً وأهلاً للثقة . . . وتنهد أبو زياد وفكر متألماً . . . آه . . . يا زياد . . . أما كان جميلاً لو كنت تساعدني في الدكان . . . وتتعلم مهنة النجارة . . . بدل تسكعك في الشارع ؟ . . لا علم . . . ولا عمل . . .

وما لها النجارة !. . مهنة جيدة . . . ولا تحتاج إلاّ لرأس مال متواضع . . . آه . . . هداك الله يا زياد . . .

ثم التفت إلى مهند ونصحه بلهجة الخبير :

- اسمع يا مهند . . . لقد تفاءلت بك . . . فانتبه لمهنتك . . . النجارة فن . . . وأساس النجاح فيها المهارة وثقة الناس بك . . .

سعل أبو زياد بشدة . . . وغاب صوته . . . وهو يسعل . . . ويسعل . . . وينظر إلى مهند بعينين زائغتين . . . وقليلاً . . . قليلاً كان تنفسه يرجع لهدوئه . . .

اضطرب مهند . . . وحار بماذا يساعد الكهل !. . . وبعد لأي أشار إليه أبو زياد إشارة متعبة طالباً منه أن يرتاح . . . عاد مهند وجلس قلقاً . . .

وبعد أن استرد أبو زياد سكونه وهدأ سعاله ... سأل متشوقاً ...

– إيه ... يا مهند ... وكيف تبت إلى ربك ؟.. فعسى الله أن يهدي زياداً ...

فأجابه مهند حامداً الله ... أنه ملّ من حياة الضياع والبطالة ... خاصة وأن والده المتوفى لم يترك لأسرته مورداً ... وليس لهم الآن إلاّ ما تكسبه شقيقته من الخياطة ... وأنه أصبح يخجل أن يأخذ جهدها لينفقه في التوافه ... وهو رجل البيت !..

بالإضافة إلى نية الزواج .. وهذا يتطلب دخلاً ... ثم من ذا الذي يتقي ربه ويرغب في سعادة ابنته ثم يرضى أن يزوجها لمن لا يستقيم على شرع الله ؟.. وكل أحد يعلم أن البعد عن الله كله شقاء ... وعذاب ... ويأس ... ولو امتلك المرء الملايين والقصور ... فإن شقاءه سيزيد عندما يتذكر أنه سيموت يوماً ما ... ويفارق ما يرفل فيه من مباهج الدنيا ...

قاطعه الكهل معجباً :

– إذاً فقد اقتنعت أن لا بد للفتى من صلاحٍ ... وعمل يتكسب منه ... نعم الرأي والله ...

ثم ابتسم قائلاً :

أبشر يا مهند . . . فأما المهنة فسأعلمك إياها . . . وأما عقيدتك ودينك . . . فيجب أن تعلم أنه لتستقيم على شرع الله لا بد أن تعرفه أولاً . . .

وإلاّ فستتخبط بين الحلال والحرام . . . والشرك والإيمان . . . لا تميز حقاً من باطل . . . أفهمت يا بني ؟ . .

فكي تكون نجاراً يجب أن تتعلم النجارة . . . ولا يدعى المهندس مهندساً حتى يتعلم الهندسة . . . ولا يُسمح لإنسان بممارسة الطب إن لم يدرسه . . . وكذلك فحتى تكون مسلماً حقاً يجب أن تتعلم الإسلام . . . وإلاّ فما رأيك بنجار يجهل النجارة ؟ . . وخباز جاهل بصنع الخبز ! . . ومسلم لا يدري من الإسلام سوى الاسم ؟ . .

لا . . . لا . . . إن هذا لا يستقيم أبداً لمن لديه شيء من العقل . . .

ولما أخبره مهند أنه يلازم دروس العلم الشرعي التي تقام في مسجد الإسلام هب أبو زياد جذلان . وقبل رأس مهند وهو يتهلل فرحاً . . .

– يا أهلاً . . . يا أهلاً . . . إذاً فأنت طالب الشيخ (محمد اللدمشقي) . . . يا أهلاً ومرحباً . . . بالشيخ محمد ... وبطلاب الشيخ محمد . . .

الشيخ محمد . . . ذاك رجل مجاهد . . . لقد أضاء المدينة

بنور الإسلام . . . ومساجد الإسلام . . . وشباب الإسلام . . .

أتدري يا بني ما فضل الشيخ .. عليّ وعلى كل أهالي منطقة الكوثر ؟ . . إنه فضل عظيم . . . لم يكن في منطقتنا كلها مسجد . . . ولم يكن يُسمع فيها أذان يذكر بالله . . . وجاء هذا الرجل الجليل . . . وحفّز الهمم . . . فاشتّرينا الأرض . . . ثم بني مسجد جامع . . . وأقيمت فيه الدروس.. وبذل فيه علم الإسلام لرجال الحيّ وشبابه . . .

هيه . . . ألم تسمع بمسجد الكوثر ؟ . .

انتبه يا بني واذكر دائماً . . . أن من يحب الله ورسوله والإسلام لا بد إلاّ أن يحب هذا العالم المجاهد وأمثاله من العلماء العاملين المخلصين . . .

ودليل النفاق والكيد لدين الله . . . أن تمتد الأيدي بالأذى لهم ولمحبيهم..أذكر هذا دائماً يا مهند . . . وإيّاك أن تنساه . . .

عضّ الكهل على شفته . . . وهز رأسه متألماً وهو يضيف شاكياً :

– لقد عم خير هذا المسجد شباب الحي . . . وطالما تضرعت إلى الله أن يمتد هذا الخير إلى نساء الحي وفتياته . . .

هذا ضروري يا مهند . . . فنحن الرجال نحضر صلوات الجمع . . . كما أن الدروس الدينية مبذولة لنا . . . ولكن

نساءنا وفتياتنا ! . . آه . . . لهن الله . . . وعسى الله أن يقيّض لهن من تشق لهن في كل حي وبيئة طريقاً للتقوى والصلاح . . .

اتفق مهند مع أبي زياد على خمسمئة ليرة كأجرٍ شهري .. تزداد كلما زاد تمرسه في المهنة . . . وأعطاه أبو زياد مئتين وخمسين ليرة سلفة . . . على أن يبدأ بالعمل من الغد . . .

ووعد مهند أبا زياد أنه سيواصل زياراته لزياد . . . عسى الله أن يلهمه الرشاد . . .

• • •

دلف سامر إلى مدخل (الكافتريا) . . . في الشارع الفرعي . . . وانتظر مها التّي تبعته متّرددة . . . وما أن وصلت حتّى فتح لها باب (الكافتريا) . . . وهو يبتسم ابتسامة تلفزيونية.. اشتد خفقان قلبها .. فهذه هي المرة الأولى التّي ترتاد فيهـــا وكراً . . .

ردت ابتسامته . . . بهزة مجاملة من رأسها . . . وقد اضطرم القلق في عروقها . . . وما أن ولجت الوكر حتّى صدمتها الظلمة المخيمة فيه ! . .

كان عالماً غريباً يعيش على ضوء قناديل حمراء خافتة . . . ومعلقة في أركان المكان . . . فلا تميز العين فيه سوى أشباحاً مبهمة الملامح . . . تسبح في أنغام ذابلة . . .

توثبت مها لتقفز هاربة . . . ولكن يد سامر دفعتها إلى منضدة منزوية . . . حيث جلسا متقابلين . . . ومنعزلين عن الآخرين . . .

بدأ سامر يناور كمحترف ليخترق صمتها . . . كان كقرصان همجي يناور للاستيلاء على باخرة جديدة . . . بينما قبعت مها منكمشة على نفسها في وسط لم تألفه . . .

غرقت الفتاة في ارتباكها ...في حين راح هو يلوك كلمات محنطة . . . قرأتها مرات ومرات . . . في تلك القصص والمجلات المدمرة . . . كان يتحدث وهو يسبل أجفانه في تواله تارة . . . أو يغمض عينيه نصف اغماضة تارة أخرى . . .

لم تجد مها البهجة التي كانت تتوقعها . . . وما لقيت في سامر الصورة التي رسمتها له عن بعد . . . حين كان يطاردها . ولكنها وبين الحين والحين كانت تبتسم نصف ابتسامة . . . أو تحرك يديها متعجبة من كلمات تلاشى نصفها قبل أن تصل إلى أذنيها . . .

وعندما آنس منها ما حسبه تجاوباً . . . قرّب رأسه منها . . . وهو يفحُ هامساً كالأفعى عن تعلقه بها . . . وشغفه بطلعتها . . . فلفحت رائحة فمه المنتنة من تدخين اللفافات وجهها . . . فارتدت مشمئزة . . . وهي تدافع بجهد جيشان معدتها . . .

ثم سرحت مع أفكارها تاركة إياه مع هذره الفارغ . . .

وكانت نفسها تتصدع من الضحكات الخافتة الممتهنة المنبعثة من الزوايا المعتمة في الوكر . . .

. . . مها . . . إنك غريبة في هذا الجو المقرف . . . أهذا ما كنت تتوقين لتجربته ! . . هيا . . . انظري . . . تأملي . . . ماذا وجدت ؟ . . سفالة . . . وقرصنة . . . ومشاعر معلبة ...

لماذا يا مها ؟ . . لماذا ؟ . . ومن هو هذا الذي تجالسينه ؟ . . أتعرفينه ! . . وماذا تعرفين عنه سوى التسكع وإضاعة الوقت ! ؟ . . وإلاّ فمن أين تلك الساعات التي كان يرابط فيها أمام الثانوية وكأنه كلب الحراسة . . . ؟

ظن سامر أن صنارته قد علقت . . . فمد يده مشفوعة بأرق ما حفظ من كلام . . . ليمسك كف مها . . . ولكن ما أن لامسه حتى انتفضت كالمصعوقة . . .

فتمتم معتذراً . . . بكلمات شاحبة . . . أحست مها أن المنافذ قد سُدّت عليها . . . وأنها سقطت في شبكة مجربة . . . تلفتت حائرة . . . فوجدت الجميع منغمسين فيما هو أدهى وأمرّ مما أراده . . منها ذاك الجالس قبالتها . . . اقشعرّ جلدها . . . وفكرت . . . يبدو أننـــا في البداية ... والمراحل القادمة هي ما أخمنه ولا أميزه مما يجري بين الآخرين . . .

أزاحت كرسيها لتهرب . . . وإذ بوجه نادل الوكر يكاد يلاصق وجهها . . . وقد استند بأحد كفيه على حافة

كرسيها خلف ظهرها وباليد الأخرى على طرف الطاولة . . .

تأججت وجنتاها من القهر . . . إلاّ أن سامراً لم يعر الأمر اهتماماً . . . وطلب صحنين من الحلوى . . .

تذكرت مها الحلوى التي أحضرها والدها بمناسبة نجاح العمل الجراحي الخطير الذي أجري لأمها . . . تملكها شعور بالذنب فتململت بضيق . . . أهكذا يا مها . . . أمك ما تزال في حالة النقاهة وأنت ؟ ! . . أنت ؟ ! . . لا . . . لا . . . يا مها . . .

وأبوك الطيب . . . كم يشقى ويشقى لإسعادك ! . . لا همّ له إلاّ أنت وأخوك . . . أفبهذه الصورة تخدعينه ! . . تظهرين له صورة البراءة الغضة . . . ولكن بعيداً عنه ! ! . . انظري . . . انظري . . . لتري حقيقتك بعيداً عنه . . . وماذا لو دخل أبوك الآن ورآك ! . . ستحطمين كرامته . . . تخيليه وقد هشمت كبريائه . . . أنت سعادته . . . أفتقبلين أن تكوني مصدر مهانته ؟ . . بل أوترضين لنفسك دور الدمية الملهاة ! . .

أالزواج تبغين ؟ . . كم من مرة ومرة خُطبت فكنت تمانعين وتصرّين على إتمام دراستك . . . جميل أن تكملي علومك . . . ولكن إن استطعت الاستقامة . . . وإلاّ فالزواج أولى لك . . .

نظرت مها إلى سامر بِشكٍّ . . . وانبثقت كلمات ندى من داخلها . . . وراحت ترن في أذنيها بإصرار . . .

. . . يا مها لقد عشنا صديقتين . . . وأنا خائفة عليك الآن من أحلامك الفجة . . . اسمعي أيتها الغالية . . . لو انزلقتِ فسيتلهون بك . . . ثم يلقونك متى ملّوك . . . وستكونين أنت وحدك الخاسرة . . . مها . . . أفيقي يا مها ...

. . . آه يا ندى . . . لقد كنتُ صماء . . . أصررتُ على التجربة فماذا وجدت ؟ ! . .

أيقظها سامر من شرودها . . . وهو يقرب إليها الحلوى التي أحضرها النادل دون أن تنتبه له . . . أمسكت بطرف الصحن . . . وسألته بلهجة باترة :

– أريد أن أعرف . . . لماذا جئت بي إلى هنا ؟ . .

فوجىء بالسؤال غير المتوقع . . . وأجاب مبرراً بعد تفكير :

– ليكتشف كل منا الآخر . . . ونبني . . . صداقة . . . رائعة . . .

همست ضجرة :

– ثم ماذا ؟ . . قل . . . ثم ماذا ؟. . . أريد أن أعرف . . ..

وقبل أن تتم عبارتها . . . التفتت إلى الطاولة المجاورة . . .

التي كانت تنبعث منها قبل قليل أصوات متكسرة وضحكات متهتكة ... فقد انفجرت منها صرخات فتاة بائسة ... لتهشم جو الهدوء الزائف ... إذ كانت الفتاة ذات « اللباس الخاكي » ... تلحّ باكية :

— يجب أن تتزوجني ... يجب أن تتزوجني ... منــذ متى تعارفنا ... هذا لا يجوز !.. تزوجني ...

وأخذت تضرب على المنضدة بقبضتها ضربات يائسة ..

بينما كان الشاب الجالس معها ينهرها بغلظة ... حانقاً ... ومحاولاً ألا يسمعها الآخرون ...

— اخفضي صوتك ... اخفضي صوتك ... بل قومي ... قومي ... ولنغادر المكان ...

ولكنها انخرطت في بكاء مرير ... وهي تزعق بصوت مخنوق :

— لقد خدعتني ... وكذبت عليّ ... ألم تعدني بالزواج ؟.. هيا نفذ وعدك ...

ارتبك الشاب ... وتردد قبل أن يقوم ليغادر الطاولة بمفرده ... ولكنها لحقت به ... وتشبثت بذراعه ... وهي تنتحب كالثكلى.. .فرفع يده وأهوى بها على وجهها.. ملقياً إيّاها ذليلة على الأرض .. واندفع متملصاً إلى الشارع بعدما ألقى بعض النقود لصاحب الوكر ...

انكمشت مها لأثر صدمة الحدث . . . بينما سارع بعض الفتيان والفتيات بمغادرة الوكر . . . لئلاّ تهتك أحلامهم الزائفة . . . على نار الحقيقة التي لا بد أنها تنتظرهم هم أيضاً في النهاية . . . والماثلة أمامهم كئيبة محطمة تندب تورطها الآثم . . .

شد سامر مها لينسحبا من المكان . . . ولكنها التصقت بمقعدها وهي تتابع الفتاة الغارقة في دموعها على أرض المحل المداسة . . . وقد انسفح شعرها على البلاط القذر . . .

أزعجت الفوضى الطارئة صاحب الوكر ، فهذه الواقعية الخشنة ستنفر رواد محله . . . الذين يفضلون أن يتم كل شيء . . وحتى فصول المأساة الأخيرة خلف أقنعة مرحة . . . ومع الحفاظ التام على مقتضيات (الأتمكيت) . . .

اقترب صاحب الوكر من الفتاة المنتحبة . . . بوجه بارد . . . خلا من أية مشاعر . . . ووقف منتصباً كالجلاد فوق ضحيته . . وحذاؤه الأسود يكاد يطأ شعرها . . . ثم طلب منها بلهجة آمرة — تخفي وغيداً مبطناً — أن تسرع لإخلاء المكان . . . إلاّ أنها التصقت بالأرض . . . مخفية وجهها بذراعيها . . . وهي تمرغ مجهشة خديها وأنفها بالأرض المتسخة بأعقاب سجائر الكثيرين . . .

كرر الرجل أمره . . . ثم أشار للنادل أن يرميها خارجاً . . .

لبى النادل الأمر . . . وأمر آخر في نفسه ! . . اقترب منها . . .
ثم أمسك بها متظاهراً بالشدة . . . ولكنها أحست بمقصده
فانتفضت منه . . . وهبّت قائمة . . . وقد جفت مقلتاها
فجأة . . . ونظرت إليه بحقد . . . من عينين أحاطتهما بقع
مختلطة من بقايا المساحيق . . . والدموع . . . وأوساخ الأرض..
وقد أحاط شعرها المتناثر المضطرب بوجهها المتقلص بضراوة . .

فأطبق النادل على عضديها جاذباً إيّاها نحوه . . . وكأنه
يريد فقط أن يجرها إلى الباب . . . ولكنها أفلتت منه . . .
وكالت له صفعة على وجهه حمّلتها قهرها ونقمتها . . .

واندفعت إلى الفتيات اللواتي ما زلن في المحل ، وهي
تصرخ بوحشية . . . وتتنقل بين الطاولات . . .

— إيّاكن والسير في هذا الدرب . . . اتعظن بي . . .
أنا أريد خيركن . . . لا تغترّرن بالكلام المعسول في البداية . . .
فستذهب لحظات الحلم . . . ليعقبها في حياتكن كلها الشقاء
والتعاسة . . .

أحرج الفتيان . . . ووقف بعضهم ناظرين إلى صاحب
الوكر . . . محرضين إيّاه على الفتاة . . . فاتجه هو والخادم
نحوها وكأنما يريدان خنقها . . . فحملت كتبها المدرسية
وهرعت لاهثة نحو الباب وهي تصرخ محذرة . . .

— اتعظن بي . . . اتعظن بي أيتها المغرورات ولا تنخدعن.

ثم قذفت بنفسها في الشارع ... مخلفة في نفوس الفتيات مشاعر ممتزجة ... من الشفقة عليها والخوف على أنفسهن ... وقد غلبتهن دموع سخية حارقة ...

مرت لحظات متطاولة ... ومها في ذهول مما رأت وسمعت ... فكرت ... وماذا لو كنتِ أنت يا مها مكانها .. وقد سبق السيف العذل ... وفات وقت الندم والحسرة ...

مجرد مرور هذا الخاطر في نفسها ... ألقى على قلبها وروحها أثقالاً من الغمّ ... حتى كأن رأسها سيتناثر ... ويتفطر قلبها ...

تحفزت والتفتت إلى سامر الذي كان يحاول تلطيف الجو ... والتعريض بتلك الفتاة غير اللبقة – كما وصفها – ، وظن أنه سيقنع مها بأن المشكلة ليست متكررة ولكنها مشكلة تلك الفتاة بالذات ... لأنها كما قال ... سيئة السمعة بالأصل ...

شعرت مها بأنها التقطت مفتاح الأمر ... فسألته :

– وكيف عرفت أنها سيئة السمعة ؟ ..

فأجاب تلقائياً ... على أساس أنه أمر بدهي ...

– طبعاً ... فلو لم تكن سيئة السمعة ... ومنحرفة السلوك لما جاءت إلى هذا الـ ...

ثم ارتبك . . . ولم يتم عبارته . . . هرب ببصره عن وجه مها . . . وحاول الفكاك مما وقع فيه . . . ولكن مها أجمعت أمرها . . . وقد تيقنت من نظرته إليها . . . فهي كنظرة أي شاب إلى من تشذ عن نهج الاستقامة وتضع قدمها على سبيل الغواية والضياع . . . ولو كان ذلك معه هو ذاته . . . فهو سيقول : من تسقط معي فستسقط مع غيري . . . فهي لا تستحق ثقتي . . .

همست مها لنفسها . . . هكذا إذن . . .

أبعدت مها صحن الحلوى . . . وشدت يدها على حقيبتها المدرسية . . . بينما راح سامر يحاول استرضاءها وهو يتفصد عرقاً . . . ولكنها لم تعره اهتماماً . . . ولم تنظر إليه . . . بل نهضت بحزم وأنفة . . . متأبطة حقيبتها . . . واتجهت إلى صاحب المحل الجالس خلف صندوقه . . . تبعها سامر بابتسامته الذليلة الشوهاء . . . جرّب أن يقلب تصرفها مزاحاً ولكن الكلمات خانته . . . وبدا كلامه متلعثماً أجوف . . .

دفعت مها ثمن صحن واحد من الحلوى . . . وقد أشاحت بوجهها بازدراء عن المراهق المرتبك . . . ثم حثت خطاها خارجة من الوكر . . . وخصلات شعرها تربت على كتفيها بحدب وكأنها تدفعها للنجاة من هذا الجحيم المزخرف . . .

استطلعت الشارع حذرة قبل أن تلقي بنفسها فيه ، فلمحت خيالاً صغيراً يرتد مهرولاً ليختفي بسرعة في زاوية

الشارع ... ساورها اضطراب مبهم كان يتضاءل كلما ابتعدت أكثر وأكثر عن مكان الوكر ...

نظرت في ساعتها ... ياه ... لقد مرت ساعة ونصف منذ أن انصرفتُ من الثانوية ... ولا شك أن والدتي المريضة ستكون قلقة لتأخري ... ولا بد أن ماهراً الحبيب يتململ بانتظاري ... ليروي لي أخباره الجديدة لهذا اليوم ... آه ... يا له من طفل مدهش ... طفل ؟ ! .. إنه في الصف السادس الابتدائي ... إنه رجل صغير ولكن على طريقته الخاصة ... هكذا يعتبر هو نفسه على الأقل ... ياه ... كم كان سيتألم لو رآني... بل سيتمزق ... فكم هو حساس أخي العزيز ذاك.

مر بذاكرتها انقباضه الحزين وانكماشه على نفسه يوم رآها مستغرقة مع إحدى تلك المجلات المليئة بالصور الشنيعة .. لقد أحست وقتها أنها طعنت براءته وتباهيه بأخته الغالية وبصفائها الرائق ... لقد قتلها غمّاً ... وكان أي شيء آخر أهون عليها من منظره وقد قبع منقمع النفس طوال اليوم رافضاً أن يكلم أحداً ... أو أن يتناول طعاماً ... آه ... يا ماهر ... يا أخي الحبيب ... كنت ستقتل نفسك كمداً ... فكيف لو دريت ورأيت ما كان من أختك اليوم ؟ ! .. أفلا تصفح أيها الحبيب لأختك نزوة جهل لن تكررها ؟ ..

وغمر قلبها شوق عارم لوالديها ... وماهر ... وندى ..

إذ ما اكتشفت كم هي تحبهم إلى اليوم . . . حباً ما تصورت عمقه قبل اللحظة . . .

• • •

ما أن فتحت مها باب المنزل بمفتاحها ودخلت إلى البيت الغارق في السكون . . . حتى أتاها صوت أمها الواهن :

— من ؟ . . مها . . . ماهر . . . من الذي أتى ؟ . .

— أنا يا ماما . . .

ألقت مها كتبها على كرسي في الردهة وأسرعت إلى غرفة والدتها . . . استقبلتها أمها — المستلقية على السرير — بوجه شاحب يتراءى فيه القلق . . . وقالت لاهثة وهي تحتضن ابنتها التي ارتمت بجانبها . . .

— لماذا تأخرت يا ابنتي ؟ . . لقد جعلتني أقلق عليك . . . يا حبيبتي . . .

كادت مها تنشج ناحبة . . . آه . . . لو تعلمين يا ماما أية حماقة كانت ابنتك ترتكب . . . مرغت مها وجهها بكنف أمها وكأنما تستصفحها . . . وأجابت مغالبة دموعها . . . ونبرتها تفضح اضطرابها . . .

— لا تقلقي يا ماما . . . حصة إضافية . . .

وأضافت وهي تتمسح بكفي أمها . . . وقد تهدّج صوتها بانفعالات ضاق عنها صدرها . . .

– كمْ أحبك يا أمي . . . إنها آخر حصة إضافية . . . صدقيني يا أمي . . .

سكنت مها تماماً مستسلمة ليد أمها الضعيفة تعبث بخصلات شعرها . . . وتربت على رأسها بحنان . . .

– هذا ما خمّنتُه يا ابنتي . . . لا تكرري فعلتك يا صغيرتي . . . فعندما تتأخرين لا أستطيع الراحة . . . وإن تقرر لك يوماً حصة إضافية في المدرسة فأخبريني على الأقل . . . أتعدينني يا مها ؟ . .

ردت بصوت خافت :

– نعم . . . أعدك . . . يا غاليتي . . .

– تصوري يا حبيبتي أن قلقي عليك منعني حتى من تناول دوائي . . .

قبّلت مها يد أمها . . . وانسلت من جانبها وقد سكنت نفسها . . . واعتبرت ما كان في ذلك اليوم تافهاً طارئاً . . . ويجب أن ينتهي في زوايا النسيان . . .

أحضرت الدواء لأمها . . . الذي ما أن تناولته حتى شعرت بحاجتها للنوم . . . فانسحبت الفتاة . . . وأغلقت باب الغرفة على الأم المتعبة . . . لعلها تجدد بالنوم بعض قواها . . .

قرع الجرس قرعاً خفيفاً ... فتحت مها الباب ... فدلف أخوها ماهر مطرق الرأس ... وألقى سلاماً مقتضباً بصوت بائس ... واتجه صامتاً إلى غرفته وألقى بنفسه على سريره .....

استغربت وجوم أخيها ... إذ أين أضاع بهجته وفرحه المتقد ؟ ! .. وأين تألقه بلقاء أخته الكبيرة ؟ ..

خامرها تفكير مزعج ... أيكون قد عرف ؟ ..

لم تسمح لهذا الخاطر بالاكتمال في ذهنها ... وتبعت ماهراً إلى غرفته ... ولكنه لم يبد إحساساً بوجودها ... وظل مسمراً بصره بنقطة ما في السقف ... وقد هجرت التعابير وجهه ...

جلست بقربه على طرف السرير ... فاستقام جالساً دون أن ينظر إليها ... وأطرق برأسه إلى الأرض ...

أرادت أن تخرجه من صمته ... فقالت مداعبة :

— أين كنت أيها الشقي ؟ .. لا بد أنك لعبت كرة القدم حتى آخر نقطة من عرقك ...

رد هادئاً بصوت حزين :

— لا ... لم أكن ألعب ...

إذاً ما هذا الوجه المبقع بالعرق ! .. والمتسخ ! .. وهذا

الشعر المغبرّ ! . . وهاتان العينان المحمرتان من الشمس ؟ ! . .

— كنت جالساً في الحديقة العامة . . .

— آه . . مع أصدقائك . . . صدق ظني إذاً . . .

— لا . . . بل بمفردي . . . لقد افتقدتك عندما جئتُ إلى المنزل ولم أجدك . . . فأحببت أن أذهب إليك في مدرستك .

خفق قلب مها . . . ولكن ماهراً تابع وقد غاصت ملامحه . . . وكأنه فارس جريح . . . قد كُسرت أسلحته . . . وتحطمت درعه . . . وسرق حصانه . . .

— وقبل أن أصل إلى مدرستك رأيت . . . أعني لم أعد أرغب . . . لقد وجدت أخيراً الحديقة العامة أمامي فدخلتها . . . ونمت على الكرسي حتى أيقظتني أم تنزه أطفالها . . . مشفقة عليّ من أذى الشمس . . .

أشفقت مها لوضع أخيها النفسي الصعب إذ ذاك . . . وقد لاحت لها شكوك لم تستطع إثباتها أو نفيها . . .

مدت يدها إلى الرأس الصغير الأشعث . . . الذي كان سينفجر باكياً بين لحظة وأخرى . . .

قطع ماهر الصمت الخانق . . .

— لقد كنت متشوقاً لأراك . . إذ كان لديّ ما أخبرك به . .

بقيا على صمتهما فترة أحساها طويلة . . . والأخت تتمنى

أن تمسح من نفس أخيها آثار جرح غائر لم تره بعينيها . . .
ودون أن يطرقا موضوعاً ما مباشرة اقتنع ماهر أن مها ستعود أخته الحبيبة . . .

أمسك بذراع أخته وقال متسامحاً :

— مها هل تغديت ؟ . . فأنا جائع . . .

فقالت وقد ارتاحت لنبرته :

— سأضع الطعام لنأكل معاً . . فأنا الاخرى لم اتغدَّ بعد . .

— أرادت أن تقوم . . . ولكنه أمسك يدها . . . وقال مستدركاً . . .

— مها . . . أتقبلين هديتي ؟ . .

مد يده بهدية ملفوفة بورق أنيق . . . ولم تكن قد انتبهت لها حينما دخل . . . تناولت منه اللفافة مبتسمة وقد استولت عليها المفاجأة . . .

— ما هذا يا ماهر ؟ ! . . أشكرك يا أخي العزيز . . . يبدو أنه كتاب . . . ما هو يا ترى ؟ . .

— لم أقرأه . . . ولا أعلم مضمونه . . .

فقالت ضاحكة :

— إذاً فكيف تهديني إياه . . . هل وجدته في الشارع ؟!

فرماها بنظرة معاتبة ، وقال وقد علت وجهه حمرة الحرج . . . فهرب بعينيه بعيداً عن وجه أخته :

– بعد أن خرجت من الحديقة احترت ماذا أفعل . . .
وأخيراً ذهبت إلى مكتبة إسلامية وقلت للبائع . . . أريد كتاباً
أهديه لأختي . . . فسألني ببشاشة وكم عمرها ؟ . . وبأي
صف هي ؟ . . ولما أخبرته انتقى لي هذا الكتاب . . .

وهنا اختلس نظرة إلى وجه أخته الذي ومض بالندم . . .
وكأنها خمنت مغزى هذه الهدية الذكية . . . فعضت اللفافة
بأسنانها . . . وأطرقت إلى الأرض هذه المرة . . .

فأردف وهو يعطي نبرته صفة المداعبة . . . ليجتاز بأخته
دائرة الارتباك . . .

– لقد نقصت نقودي ليرتين عن ثمن الكتاب . . .
فصافحني صاحب المكتبة وقال إنهما هدية منه لي . . . وهكذا
فالكتاب قسمان . . . قسم هدية مني لك . . . وقسم هدية
من البائع لي . . . ولكنني سأدعك تقرئين حصتي . . .

حدقت فيه بإعجاب . . . وهي تتمتم منفعلة . . .

– أيها العفريت الحبيب . . . قل لي ماذا يدور في هذا
الرأس الصغير ؟ . .

– كدت أن أنسى . . . ياه . . . لقد حل الموعد . . .
يجب أن أتوضأ الآن . . .

وأسرع خارج الغرفة . . . تاركاً إياها لتتغلب على انفعالاتها
بمفردها . . .

ولكن عجب مها كان بازدياد . . . فما معنى الوضوء !..
واليوم بالذات ! . . ومنذ متى كان لماهر مواعيد سوى دوام المدرسة ؟ ! . .

دقائق . . . وعاد ماهر إلى أخته . . . فوجدها تتصفح الكتاب باهتمام . . . نظرت إليه فوجدته قد ارتدى ملابسه النظيفة . . . وأزال الوسخ عن وجهه . . . ومشّط شعره . . .
وبدا في كامل استعداده لمغادرة البيت . . . إلى موعده الذي حان ! . .

تساءلت . . . ترى إلى أين ؟ ! . . وقال وهو يلمح الفضول في وجهها . . .

– يبدو أن ماما لم تخبرك . . .

فأشارت برأسها مستفهمة . . . عن ماذا ؟ ! . . فقال وقد أشرق وجهه بالسعادة . . .

– منذ اليوم سأصبح طالباً في مسجد السلام . . . وسأتعلم فيه الإسلام . . . فما رأيك ؟ . . وأنا ذاهب الآن لأتلقى درسي الأول . . .

وهذه مفاجأة أخرى هذا اليوم . . . لم تدر فعلاً ما رأيها ...
ولم تدر ليمَ تذكرت في هذه اللحظة صديقتها ندى . . .
فتساءلت في نفسها . . . عما سيفتحه لها ذلك الكتاب من آفاق في حياتها . . .

ثم نظرت إلى ماهر مشجعة . . .

– إنه أمر عظيم يا ماهر . . . كما يبدو أنه كتاب قيّم . . . ولكن ألن تأكل قبل ذهابك ! . .

– يجب أن أذهب بسرعة وإلاّ تأخرت . . . ولن أوقظ ماما لأودعها فقد أخبرتها منذ الظهر . . . إني ذاهب الآن . . . السلام عليكم . . .

لم تتشبث به ليأكل قبل ذهابه . . . بل تأملته . . . إنه رجلٌ تلميذ السادس الابتدائي هذا . . . رجل حقيقي . . . فهل الإنسان بسنيٍّ عمره أم بأفكاره واهتماماته ! . .

ولم يخط ماهر خطوات خارج الغرفة حتّى عاد مسرعاً . . .

– مها ألا تريدين أن أدعو الله لك ؟ . .

نظرت إليه وقد باغتها سؤاله . . . غسلته ببصرها . . . ماذا تعني بتلميحك الذكي أيها الحبيب ؟ . . وقالت :

– وماذا ستدعو الله لي ؟ . .

– أن تصبحي كما يحب الله ويرضى . . . وأن يمتلىء قلبك بنور الله . . . فلا يبقى فيه للشيطان نصيب . . .

أثر كلامه البريء في نفسها . . . فقالت بإخلاص :

– لا تنس ان تدعو الله لي دائماً . . .

ابتهج ماهر لكلام أخته . . . فاندفع إليها جذلاً . . .

وخطف قبلة من رأسها ثم هرب ضاحكاً . . . فصاحت به مداعبة :

– آه منك أيها العفريت . . .

وجاءها صوته ممطوطاً وهو يندفع إلى المسجد . . .

– الســـــلام . . . عليكـــم .



الفصل السادس

الدعوة .. والعمل

« ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً »

صدق الله العظيم



هرعت نور إلى زميلتيها ماجدة ورولا ، اللتين كادتا تدخلان مخبر الفيزياء العملي عندما هتفت بهما نور . . . فوقفتا تنتظرانها مشدوهتين . . . فقد بدت بجلبابها المريح مختلفة تماماً .. بل وبدت فتاة متميزة تماماً بإسلامها . . . كانت متألقة بشكل نفاذ ... تألقاً لا يليق إلا بالإنسانة الكاملة . . .

اقتربت نور محيية :

– صباح الخير يا رولا . . . كيف حالك يا ماجدة ؟ . .

فردتا معاً بدهشة . . .

– صباح الخيرات . . . ولكن ما هذا ؟ . .

فقالت مزهوة بلباسها الرائع . . .

– إنه لباس المسلمة . . . وهو وحده ما يناسب المرأة من اللباس . . .

فقالت رولا مستغربة :

— ولكن من يلبس هذا الآن . . . لقد كان هذا في الماضي . . . أما . . . أما الآن فقد تغير كل شيء . . .

فأجابت نور واثقة . . .

— من تعتز بإسلامها تلبسه . . . وإني واثقة أن تخلي المسلمات عنه طارىء سيزول . . . وتعود الأمور إلى نصابها .. وإنني أشكرك أنت يا رولا .. فكلامك أنت شجعني كثيراً . . . أفلا تذكرين نظرية قرص العسل !.. أنسيتها يا ماجدة ؟ . .

استهجنت رولا ذلك ، وكأنها تسمع ما لم يحدث معها قط ، فذكرتها ماجدة بنصيحتها لنور بأنه من الضروري أن ينسجم سلوكها ومظهرها مع ما تحمل في رأسها من أفكار . . . ففغرت رولا فمها دهشة وقالت :

— ولكنني لم أقصد هذا قط . . . صدقيني يا نور . . . بل كنت أقصد العكس تماماً . . . أن تبدلي أفكارك بأخرى تنسجم مع زيّك السابق . . .

ضحكت نور بسعادة . . .

— سامحك الله يا رولا . . . فقد أردت لي شراً ولكن الله أبدلني به خيراً . . . والكثيرات خذلنني عن ارتدائه . . . ولكن من يطع أهواء الناس يهلك في الدنيا والآخرة . . . ولا خير أبداً إلاّ فيما شرعه الله لنا . . . ففيه وحده الفصل

بين الحق والباطل . . . بين ما يجب علينا سلوكه وما يجب علينا اجتنابه . . .

لاحظت نور أثناء جلسة الفيزياء عيني ماجدة تلمعان بودٍ . . . فهمست لها . . .

– أراقك الجلباب يا ماجدة ؟ . .

– بصراحة . . . لقد أفرحتني صلابتك بل وأدهشتني . . . إذ كنت أحسبك ستتهاوين . . . أتعلمين يا نور أنك تتحدين الشر كله علانية بلباسك هذا . . . فلا بد أنه دافع عظيم هذا الذي حملك على سلوكك هذا . . .

– رويدك . . . رويدك يا ماجدة . . . أية صلابة تلك التي تتحدثين عنها ؟ . . فالأمر غاية في البساطة . . . أمر افترضه الله عليّ ... ولم أنفذه إلا بعد تلكؤ . . فأرجو الله أن يغفر لي تراخيّ في تطبيق فرائضه . . .

– إني أغبطك يا نور . . . ليت لي إيمانك . . .

– ولم التحسر يا ماجدة . . . فالإيمان علم وعمل يقوى ويسطع بهما . . . فهيا يا أختاه واشحذي همتك . . . فالغاية مشرقة نيرة . . . والسبيل إليها صراط مستقيم . . .

آنست نور من ماجدة رضى بما تقول . . . وقد شعت عيناها وأضاء وجهها كله بصفاء . عميق . . . فأردفت بإلفة ...

ــ وهاك يدي يا ماجدة ... يد أخت لك ... ولنشبك كفينا وننطلق معاً على سبيل إسلامنا العظيم ... ففيه وحده سعادتنا بل وسعادة البشرية جمعاء في الدنيا والآخرة ...

اهتزت نفس ماجدة فقد استبان لها نهج جديد ... أضاءته لهجة نور المخلصة ... فهذه أول مرة تخاطب فيها بتلك الجدية والمسؤولية الرفيعة ... وشجعتها ألفة نور وانفتاحها ... فشدت كف نور وهي تقول بصدق وبلا مواربة ... حتى إن نور أحست بصدرها يكاد يحترق من حرارة الكلمات . وقد استولى عليهما سمو الحدث :

ــ سأكون لك أختاً في الله ... ولنسر معاً على نور هداه ... نور لا تبخلي علي بوقت ولا نصيحة ...

ــ وليجعل الله تعالى تآخينا خالصاً له ... وليوفقنا لطاعته ... ماجدة أيتها الأخت الغالية ليحفظك الله .

دخلت مي إلى مسجد الفتيات في الكلية لأداء فريضة صلاة الظهر ، وما هي إلا هنيهة ... وقبل أن تبدأ صلاتها .. فتح باب المسجد وأطلت نور ... فأقبلت مي عليها مهنئة :

ــ مبروك يا أختاه ... والله لقد أثلجت صدري بلباسك الجديد ... هنيئاً لك طاعتك لربك ...

ــ بارك الله فيك يا مي ... وجزاك الله كل خير ... وهنيئاً لك سابقتيك إلى دين الله وطاعته ...

وكان لقاؤهما متوهجاً . . . وما لبثت الفتيات المتوافدات على المسجد أن التممن حول نور يباركن لها طاعتها . . . وملأ المسجد جو عذب من بهجة الإيمان ، وإخلاص كنقاوة الماس...

وتمنت نور لصديقاتها المصليات اللواتي ما ارتدين بعد لباس المرأة المسلمة أن يهيأ لهن ذلك . . . ويوفقن للمبادرة لطاعة الله . . . ولكن بعضهن استغرب ذلك. . . وبدا واضحاً جهل الكثيرات منهن بأن الجلباب هو ما افترضه الله على المسلمة لتلبسه . . .

إذ قالت بعضهن إنها تظن الأمر مجرد إخفاء لشعر الرأس . ولا يهم أن تلبس بعد ذلك ما شاءت ما دامت غطت رأسها . . . ولو أنها لبست بنطالاً وقميصاً ! . . أو معطفاً يغطي ركبتها !!.

وتضاربت الآراء . . . مما نمّ على أن الكثيرات من المصليات كن لا يعرفن من إسلامهن سوى ترديد شهادة «لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله » . . . وأداء الصلوات الخمس ! ! ! . .

مما حز في نفس نور وأشعرها بالخيبة . . . وخاصة وأن الكثيرات منهن سبقنها إلى الإسلام – كأركان خمسة فقط – بسنوات طويلة . . . همست نور لنفسها . . . إنه الجهل . . . الجهل المخزي بالإسلام . . . رغم التفوق بأمور أخرى . . .

فأشارت مي برفق إلى سبب هذا التضارب في الآراء حتى

حول أمر واحد من أمور الدين . . . ومن فتيات متعلمات جيداً بالنسبة لأترابهن خاصة . . .

— لقد وجدنا يا أخواتي من يعلمنا العلوم كلها إلاّ أمور إسلامنا . . . إذ يبدو أن حصصْ الدراسة ضاقت عن تدريسنا إيّاه — كما تقتضي طبيعته — وافتقدنا في دراسته الأسلوب التربوي الجادّ . . .

ووافقنها جميعهن أن تدريسهن الإسلام قد تمّ . . . « دفعاً للعتاب فقط » . . .

وقالت إحداهن وقد آلمها جهلها بعقيدتها . . . وتقصيرها بتطبيق أحكام الإسلام :

— إنني أغبط إخواننا شباب الإسلام . . . فالمساجد مشرعة الأبواب أمامهم . . . وعلى الأقل لهم كل يوم جمعة ساعة يُذكرون فيها بدينهم . . . وها هي المساجد تقيم لهم دروس العلم والتفقه بالإسلام . . .

ولكننا نحن فتيات الإسلام اللواتي أهدر حقنا . . . وأغلقت قاعات العلم في المساجد في وجوهنا . . .

وأضافت أخرى بادية الأسى . . .

— هذا وضعنا ونحن المصليات ! . . فكيف بسوانا ؟ ! . . إنه أمر مبكٍ . . .

فقالت نور متحرقة :

– لقد قرأت يا أختاه أن للمرأة حقها أيضاً في ارتياد المساجد لأداء الصلوات والتفقه بأمور الدين . . . ولكن ماذا يقال عن هذه التقاليد المقيتة التي أحلها الجهل مكان شرائع الإسلام السامية ! . . فنادراً ما نجد مسجداً يتاح فيه لبضع نسوة الاستماع من بُعد ولموضوع لم يُعد أصلاً لهن . . . وبالتالي فهو لا يعالج مشاكلهن إطلاقاً . . .

هتفت إحداهن :

– صدقت يا أختاه . . . والله إن أعظم ما أصبحت أتمناه أن ييسر لي درس أتعلم فيه الحلال والحرام وأمور الإيمان . . .

وافقت الفتيات كلهن على رأي صديقتهن . . . وبعد أن أدّين فريضة صلاة الظهر طلبن من نور – حيث إنها صاحبة طاعة جديدة – أن تدعو لهن الله لييسر لهن التفقه بالإسلام . . . فدعت ربها وأمّنّ على دعائها . . . وقد شملتهن السكينة ورفرف عليهن خشوع الإيمان . . .

وبعد انتهاء المحاضرات في ذلك اليوم سارت مي وماجدة ونور معاً . . . وهن يتبادلن الكلام ويتناقشن حول الحوار الذي دار في مسجد الفتيات . . . وما لبثن أن التقين مصادفة بصديقة مي هند قرب بوابة الحرم الجامعي ، إذ كانت هي

أيضاً ذاهبة إلى منزلها إثر انتهاء دوامها الجامعي لهذا اليوم . . .
ولم تعرف هند نوراً للوهلة الأولى . بمظهرها الجديد بل حسبتها رندة . وكادت تبكي فرحاً عندما تحققت من الأمر . . . فما وفرت عندها عبارة تهنئة إلا وصبتها على نور . . . وزاد في سرورها ما أخبرتها به عن الأثر الكبير الذي أحدثته نور ضمن فتيات صفها . . . وخاصة ذلك الحوار الغني الذي دار في المسجد . . .

وعقبت ماجدة مؤكدة :

ـ هذا صحيح تماماً . . . فما نعرفه عن الإسلام يكاد يكون لا شيء . . . وكم أنا متألمة لوضعي فأردفت نور :

ـ الحل أن يقوم أحد ما بتعليمنا الإسلام . . .

ابتسمت مي بدهاء قائلة :

ـ أنا أعرف من تستطيع . . . ولها القدرة أيضاً على تلبية هذه الحاجة الضرورية . . .

التفتت الفتيات الثلاث إليها بفضول . . . فتابعت وهي تنظر إلى هند :

ـ أعرف مؤمنة متخرجة من كلية الشريعة ولها من الخبرة بأمور الإيمان والوعي ما يؤهلها لتقدم للمسلمات الشيء العظيم . . .

استشمت هند مقصد مي . . . فسألتها مبتسمة :

— مي . . . ماذا تعنين بالضبط ؟ . . هيا قولي . . .

— كنت أقول إن هذه المسلمة الكريمة لديها مقدرة تربوية أيضاً . . . والدليل أنها أنشأت أبناءها وبناتها تنشئة إسلامية خالصة . . .

شدت نور وماجدة لتعرفا من هي هذه المرأة العظيمة . . . فقالت مي مشيرة بكفها إلى هند . . .

— وأمامكما الآن ابنة بارّة لتلك المؤمنة الصادقة . . . إنها والدة هند . . . ما رأيك ألا تجدين ذلك مناسباً يا هند ؟ . .

— لا أريد أن أتظاهر بتواضع زائف . . . نعم هكذا هي والدتي . . . وأنا متأكدة أن بقدرتها إفادتنا لو وافقت . . . وما أظنها تضنّ بذلك . . . في الحقيقة لقد فأجأتني يا مي . . . إذ لم أفكر بذلك قبلاً . . . وأعدكن أن أطرح على أمي هذا الأمر اليوم . . .

ثم اتفقن أن تناقش هند الموضوع مع أمها لدى وصولها إلى المنزل . . . وأن يزرنها مساء للاطلاع على رأي أم هند وإقناعها بحاجتهن للاستفادة من علمها ووعيها وخبرتها . . .

* * *

وعندما وصلت هند إلى منزلها حيّت إخوتها الذين كانوا يؤدون واجباتهم الدراسية .. بينما كان والداها في غرفة أخرى يناقشان بعض الأمور . . . قرعت عليهما الباب ثم دخلت وحيّتهما باحترام فردّا عليها معاً مرحبين :

ــ وعليك السلام أيتها الحبيبة النقية . . .تعالي واجلسي يا هند . . .

قصت هند على والديها اقتراح صديقاتها ، فاستمعا إليها باهتمام وقد امتلآ إعجاباً بهذا الاقتراح . . . نظرت أم هند إلى زوجها مستشيرة بعدما أنهت هند ما عندها . . . فهز الرجل رأسه وأبدى فخره بأولئك المسلمات وأفكارهن . . . ثم التفت إلى زوجته مشجعاً :

ــ وماذا تنتظرين يا أم هند ؟ . . إني لواثق أنك على قدر هذا الأمر ، فما عندك كثير . . . وإياك والتقاعس . . . فأنت تعرفين جزاء من يكتم علماً . . .

ــ أما من جهتي يا أبا هند فمعاذ الله أن أرفض ، ولكن ما يشغلني هو أنت والأولاد . . . إذ أخشى أن أقصر بتدبير شؤون المنزل . . .

ــ سامحك الله يا زوجتي العزيزة . بل سأكون أسعد زوج إن انطلقت لتنيري السبيل أمام فتيات العصر اللواتي كثرت في وجوههن العقبات تحول بينهن وبين دين الله العظيم ..

أقبلت هند على أمها وقبّلت يدها راجية منها أن توافق. . . وأخذت على نفسها عهداً أن تضاعف مساعدتها في أعمال البيت . . .

فقبّلت الأم بدورها رأس هند قائلة :

– إنها من أعظم لحظات حياتي . . . وأخيراً سأقدم شيئاً من جهدي في سبيل الله . . . كم أتحسر الآن يا أبا هند على ما فرطت من سنين كان يجب أن أقدم فيها الكثير الكثير لديني وإيماني . . .

– مهلاً يا أم هند . . . إنك فعلاً قدمت الكثير . . . هؤلاء أولادنا قد نشأتهن خير تنشئة . . . ثم أنسيت كيف نقلت جاراتك وأخواتك والكثيرات من قريباتك وقريباتي من ظلمة الجهل والشرك إلى نور الحق والإيمان ؟ . .

إنك امرأة مباركة . . . ألا فليحفظك الله. . . وليجزك خير الجزاء . . .

حصرت الأم دموعها . . . ونظرت إلى زوجها نظرة رضى حمّلتها من المشاعر ما لا يمكن أن يفهمه فضلاً عن أن يعيشه إلا زوجان مؤمنان جمعهما دين الله ، ووحد بين إرادتيهما هدف واحد في الحياة . . . بل يطمحان أن ينهلا . . وينهلا من النعيم الأبدي معاً في جنان الله . . .

وقالت أم هند بتأثر :

– بارك الله فيك يا أبا هند . . . فلو لم تكن واعياً لدور المسلم والمسلمة في المجتمع لما كان بوسعي إلا أن أدفن نفسي وما وهبني الله من علم في دينه ، بين قدور الطبخ . . .

أحست هند بالحرج وأن وجودها لم يعد ملائماً ، فأرادت الانسحاب من الغرفة . . . إلا أن أباها استوقفها قائلاً :

– إلى أين يا ابنتي ؟ . . فها هي أمك قد وافقت . . . فاجلسي ولنر كيف سيتم الأمر . . .

فسألت الأم هنداً عن عدد صديقاتها اللواتي تتوقع أنهن يرغبن في الاستفادة . . . فأجابتها هند بأنه عدد ليس بالقليل ... حيث إن الكثيرات من صديقاتهـا وصديقاتهن يتمنين تطوير أنفسهن إسلامياً . . . إذ لدى كل منهن الكثير من القضايا التي يحتجن فهمها ودراستها . . .

فقالت الأم :

– في هذه الحالة لا يمكن أن يتم اللقاء في المنزل . . . وأرى أن يكون درساً في أحد المساجد حيث السعة والبركة . . . والأفضل اختيار مسجد قريب من محطة الحافلات لتخفيف عناء المواصلات عن صديقاتك . . .

وافقها الأب بإعجاب . . .

– ما أعمق فكرك يا أم هند . . . حسناً ، خير البر عاجله . . . فأي المساجد تختارين ؟ . .

– لا أنسب من مسجد (النورسي) . . . فهو قريب من محطة الحافلات المركزية ، قريب من الجامعة . . .

– أصبت يا أم هند فهذا ما هممت باقتراحه . . . والآن فما دوري أنا أيتها الداعيتان ؟ ضحكت أم هند ضحكة ذكية وحييّة وهي تشير إليه برأسها :

– ومن غيرك أيها الغالي سيتدبر الأمر ويرتب لنا الأمور في مسجد (النورسي) . . .

أطرقت هند خجلاً وهي تخفي ابتسامتها الفرحة بصفاء والديها . . . قام الأب وقال ألا داعي للتسويف وأنه سيصلي العصر في مسجد (النورسي) ويرى كيف ستتم الأمور . . . كما اقترحت هند أن يكون موعد الدرس بعد صلاة العصر من يوم الجمعة من كل أسبوع . . .

* * *

انتحى أبو هند بإمام مسجد (النورسي) بعد أداء صلاة العصر جماعة وتلاوة الأذكار المسنونة بعدها . . . حسب إمام المسجد أن لدى هذا الرجل سؤالاً شرعياً يريد الاستعلام عنه . . . فأعاره أذناً صاغية . . .

كان أبو هند يتعشم أن تتم الأمور بيسر مع إمام المسجد . . . فهذا ما عهده المسلمون من أئمة مساجدهم . . . غيرة على الإسلام وحرماته . . . ومبادرة لكل ما فيه نفع للمسلمين . . . وحفاظ على عقيدتهم . . . وجماهير المسلمين احتفظت لهم على الدوام باحترام رفيع فهم ينابيع خير وعلم تروي العطاش وتقوّم الانحراف . . .

شرح أبو هند لإمام المسجد ما جاء لبحثه معه . . . فارتعد الرجل ! . . وراح يحاول التملص وانتحال الأعذار متهرباً من إلحاح أبي هند ! ! . .

صُدم أبو هند من موقف الرجل المزري . . . وتساءل في نفسه . . . أهو منهم ؟ ! ! . . لا . . . لا . . . فمظهره لا يدل على ذلك . . . ولو كان منهم لحاول استدراجي . . . ولكن وماذا يستدرج بي ؟ ! . . فكل ما في الأمر . . . درس للنساء في مسجد ! . . أفيكون من القوم الذي يفرقون ؟ . . يا ويلتاه . . . أيكون بين أئمة مساجد المسلمين رجل من ذلك الصنف ؟ ! . . وهو على كل حال قد سمع (أنهم) يختارون الرجل الهزيل للموقع الحساس حجباً للفائدة عن المسلمين . . . هكذا إذن . . . فأنا أمام حالة من هذا النمط . . .

وكانت الوشوشة المتعالية قد نبهت أبا وليد — وهو كهل من أهل الحي . . . يشرف منزله على المسجد ، ويكاد لا يفوت

عليه فرضاً إلاّ وصلاّه في المسجد . . . ويكن له أهل حيّه أطيب المشاعر لتدينه ومسارعته لبذل ما يستطيع من عون لمن يحتاجه — ألقى أبو وليد التحية عليهما وهو يقترب منهما . . . فردّا عليه السلام . . .

— أرجو ألا أكون متطفلاً عليكما . . . ترى أيمكن أن أفيدكما عوناً ؟

تلعثم الإمام مضطرباً فهو يعرف موقف أبي وليد سلفاً . . . كما يعرف تماماً أثر كلامه في أهل الحي . . .

إلاّ أن أبا هند وجدها فرصة سانحة . . . وخاصة أنه تلمح في أبي وليد خيراً . . . فقص له الموضوع كله من مبتداه إلى منتهاه . . . وأفهمه أن زوجته خريجة كلية الشريعة يغبطها أن تعقد درساً إسلامياً في هذا المسجد تلبية لحاجة فتيات مسلمات طلبن منها ذلك . . . وضرب أبو هند على وتر حساس يؤرق الجميع . . . فقال متسائلاً :

— ومن ذا الذي لا يتحرق ليقام في مسجد حيّه لقاء ديني للنساء تحضره بناته ونساؤه يتعلمن فيه الدين والحشمة . . . وإلى متى يرضى الناس لأنفسهم ولنسائهم الاستسلام لتيار الانحراف الموجّه ؟ . . فالدرس الديني سياج من الزلل . . . والمسجد روضة من رياض الجنة . . .

ثم التفت إلى أبي وليد مستحلفاً :

– بالله عليك يا أبا وليد . . . أليس هذا حقاً يا أخي ؟ . .

فعلت الكلمات فعلها في نفس الكهل المتدين ، فهز رأسه موافقاً :

– صدقت . . . صدقت والله . . . إنها أمنية عزيزة ستبهج أهل الحي جميعهم رجالاً ونساء . . . أي والله . . . ولكننا لم نتعارف بعد يا أستاذ . . . أنا أخوك أبو وليد الكردي . . والأستاذ ؟ ! . . .

– تشرفنا يا حاج وبارك الله فيك . . . وأنا أخوك أبو هند . . . عمر عبد القاهر . . .

– يا مرحباً . . . وبارك الله فيك وبغيرتك على دين الله . .

ثم التفت الحاج أبو وليد إلى إمام المسجد مستفهماً عن رأيه . . . وقبل أن يفتح الإمام فمه بكلمة . . . أشار أبو وليد إلى بعض رجال الحي الذين كانوا يتبادلون التحيات قرب باب المسجد . فأقبلوا عليه ملبين . ولما أبلغهم أبو وليد بالأمر تهللت وجوههم بشراً . . . وقالوا معاً مرحبين بالفكرة وصاحبها . . .

– يا أهلاً وسهلاً بأبي هند . . . بشارة خير بإذن الله . . .

ولكن المتسربل بلباس إمام قاطعهم بصوت مهلهل :

– رويدكم . . . أتحسبونه أمراً هيناً ؟ . . أتريدون

جلب المصائب على رأسي . . . درس في المسجد ؟ ! . . . .
وللنساء أيضاً ؟ ! . . يا جماعة ارحموني . . . إنهم سيخربون
بيتي . . . إنكم لا تعرفونهم . . . إنهم حيوانات متوحشة . . .

فرد عليه أبو هشام وهو من رجالات الحيّ . . .

— ما هذا يا شيخي ؟ ! . . أهذا الرأي ؟ !.. نقول لك:
درس لنساء الحي وتقول إنهم سيخربون بيتك ! . . وينزلون
المصائب على رأسك ؟ ! . . كفاك أوهاماً يا رجل . . . واتق
الله . . . أم لعله يسرك أن تزحف الفتنة إلى حيّنا . . . ثم إلى
بيوتنا لتدمر شبابنا وفتياتنا ! ! . .

وحاصره الجميع فانهار منطقه وبطلت حجته . . . ثم
انتقل الجميع وهو معهم إلى منزل أبي وليد الذي أصر على
دعوتهم بهذه المناسبة التي قال إنها بشرى زاهرة ستحمل
زوجته وبناته للسجود شكراً لله . . .

واتفقوا وهم يرشفون القهوة على موعد الدرس . . .
بعد صلاة العصر من يوم الجمعة . . . وأن الدروس ستبدأ
منذ يوم الجمعة الآتي مباشرة بإذن الله . . .

زفّ أبو وليد إلى زوجته وبناته الخبر . . . وعاد ليخبر
أصحابه أنهن كدن يبكين فرحاً. . . وأن ابنته هدى بدأت
بتخطيط إعلان بهذا الشأن . . . وسيتولى هو تعليقه في حرم
المسجد . . . كما قال إن بناته سيدعون صديقاتهن وجاراتهن

وقريباتهن كلهن إلى الدرس . . .

سرّ الجميع لهذه البداية . . . وأكد الصحب أن نساءهم لن يكن أقل شكراً لله على هذه النعمة . . .

واعتذر إمام المسجد من أبي هند عن موقفه الأول . . . وشكره إذ سيجد أخيراً من تقوم مع بناته بالمهمة التي لم يفرغ هو لها كما قال . . . وأكد أنه سيحضر أهل بيته إلى الدرس ..

وعندما ودعهم أبو هند أصر عليه الرجال ألا يقطع زياراته لهم . . . خاصة وأن صحبة إسلام ستنشأ بين نسائهم وزوجته .. كما دعاهم أبو هند لزيارته وهنأهم على تدينهم وعواطفهم الإسلامية المتقدة . . .

* * *

في تلك الأثناء كانت مي ونور وماجدة ورندة قد وصلن إلى منزل هند التي كانت قد اتصلت برندة داعية إيّاها للمجيء . . .

سرّت الفتيات للقيا أم هند إذ أحسسن أنها أخت كبيرة لهن ، كما انشرحت صدورهن لمعاملة الأم الرؤوم التي أحاطتهن بها . . .

سألن عن أمور كثيرة طالما شغلتهن وكن دائماً يجدن الحل والتفسير لدى أم هند التي امتازت بالبشاشة والوضوح . . .

وانتزعت بلباقتها كل حرج لديهن فانطلقن يعبرن عن مشكلاتهن واهتماماتهن بصراحة ... فكانت نصائح أم هند وإرشاداتها تنسكب على نفوسهن بلسماً شافياً ...

وما أن عاد أبو هند من مهمته حتى أخبر زوجته أن كل شيء قد أصبح ممهداً في مسجد (النورسي) ، وأطلعها على موقف أهل الحي وتأييدهم الرائع للفكرة ... وعقب قائلاً ...

— أتوقع أيتها المربية الورعة أن نساء الحي سيعلن الزحف العام إلى الدرس ...

تأججت الفتيات أملاً وحماسة عندما نقلت إليهن أم هند الأخبار السارة ...

وحددت لهن موعد الدرس الأول فأكدن أنه مناسب تماماً ... وأبدت مي رغبتها في تعليق إعلان بهذا الشأن في مسجد الفتيات بكلية الطب ... وقالت ماجدة محرجة ...

أتمنى أن أكتب إعلاناً بهذا الشأن على سبورة مدرج الكلية ... ولكنه سيبدو أمراً غير منسجم أن أدعو الزميلات إلى أمر ما زلت أنا نفسي غريبة عنه ...

فطيبت أم هند خاطرها شادة من عزيمتها في الآن نفسه...

— ما دمت تمتلكين الإرادة يا ماجدة ... وقد وضعت خطاك على الطريق الصحيح ... فلن ندعك أبداً بإذن الله ...

بل وسترسخين بعون الله في أعلى مراتب الإيمان ... ولم لا يا ماجدة ! ..

فاستأذنت نور أم هند بكتابة الإعلان على سبورة المدرج .. كما وعدت هند أن تكتب هي الأخرى إعلاناً في مسجد الفتيات في كلية الآداب ، وآخر على السبورة في قاعة المحاضرات ... وأضافت :

– وسأرى إن وافقت إدارة الكلية فسأضع إعلاناً ثالثاً في لوحة إعلانات الكلية ...

وتابعتها ندى عازمة أن تدعو صديقاتها في الثانوية ، وخاصة أن صديقتها التي تشاركها في المقعد متشوقة جداً للاستفهام عن كل شيء في الإسلام ، فهي ما تكاد تتعلم حكماً منه حتى تسارع لتطبيقه ...

وعندما ودعت الفتيات أختهن الكبيرة أم هند كانت هممهن قد شحذت وتيقن أنهن لسن بمفردهن في مواجهة سيل الفساد ...

الفصل السابع

شرط الإيمان .. وحدة الإسلام

« . . . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

صدق الله العظيم



وفي اليوم التالي أثارت الإعلانات التي علقتها المؤمنات همهمة في الكلية . . . ما لبثت أن انقلبت دعوة عامة حملتها أكثر من سمعن بها كأمانة شخصية وتولّين إيصالها إلى صديقاتهن . . .

وهكذا ما كاد الموعد يقدم حتى كان النبأ قد سرى سريان النار في الهشيم سواء في الجامعة أم في الأحياء المحيطة بمسجد (النورسي) ، فضلاً عما قامت به كل من الصديقات المؤمنات بتعميم الدعوة بين قريباتها ونساء حيّها . . .

كما لم يتوان أكثر من وصله خبر الدرس من طلاب الجامعة عن نقله إلى والدته وأخواته . . .

فكان من الطبيعي إذاً أن غصّ المسجد بعد صلاة العصر من يوم الجمعة بالنسوة من كل الأعمار . . . وإن رجحت أعداد الجامعيات وطالبات الثانوية بين الحاضرات . . . مع

عدد كبير من طالبات المرحلة الإعدادية . . . وكن جميعاً متشوقات لسماع تلك المؤمنة الفاضلة التي أخرجتهن من رتابتهن الحياتية . . .

وتمنت الكثيرات منهن وخاصة المثقفات ألاّ يقتصر اللقاء على أمور عامة مكرورة . . . بل أن تطرق موضوعات ذات صلة مباشرة بمشكلات المسلم في العالم وقضايا الإسلام الأساسية . . .

شُدِهَ سامر لما رأى مها وقد لبست جلباباً وخماراً وهي تسير مع فتاة أخرى تماثلها . . . فوقف فاغراً فاه كالأبله يسائل نفسه . . . أحقاً ما يرى ؟ . . وبمثل هذه السرعة ! . . إلا أن مها شدت يد ندى تستحثها كيلا تتأخر عن موعد الدرس ودون أن تعير الأبله الغافل اهتماماً . . . فقالت ندى . . .

– نعم لنسرع فلا بد أن نوراً قد سبقتنا هي وماجدة وأنهما بانتظارنا الآن . . .

اتجهت أم هند إلى محراب المسجد طلقة المحيا تلوح الفطنة والثقة من سمتها . . . وألقت على النسوة المجتمعات السلام ببشاشة . . . فرددن عليها السلام متلهفات . . .

ثم بدأت كلامها بذكر الله . . . ورجته تعالى أن يوفقها والمسلمات وكل نساء الأرض ليكنّ ممن يستمعن القول فيتّبعن أحسنه . . . وأن يسلك بني البشر جميعهم صراطه

المستقيم الذي جاء الاسلام ليهديهم إليه ... أمّنت النسوة خاشعات على دعائها ... ثم اتجهت أم هند إليهن قائلة :

-- أريد أيتها الكريمات قبل أن نبدأ موضوع اليوم أن أسألكن سؤالاً صغيراً ... فنحن مؤمنات إن شاء الله ... وقد جئتن إلى هنا تعبيراً عن انتمائكن هذا ... ولكن ترى كم هن اللواتي يستطعن منكن أن يقلن لنا ما معنى الإسلام ؟ .. وما يعني تحققه في نفس الفرد ؟ ..

هنا سرت همهمة خجلى بين الحاضرات إذ اكتشف معظمهن أنهن عشن حتّى هذه اللحظة غافلات حتّى عن هذا الأمر البدهي ...

أجالت أم هند بصرها بينهن ، مذيبة بإشراقتها الخجل والتّردد من نفوسهن ... ومشجعة إيّاهن للإجابة عن سؤالها ..

مرت هنيهة صمت قصيرة ، ترددت بعدها بعض الإجابات المقتضبة :

-- الإسلام هو شهادة ألا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله.

-- كوني مسلمة يعني أن أشهد شهادة الحق وأقيم الصلاة وآتي الزكاة وأصوم رمضان وأحج البيت إن استطعت .

-- كوني مسلمة يتجلى بأن أتحلى بالأخلاق الحسنة ...

كل هذا وأم هند تتلقى الإجابات بابتسامة لا تخبو ...

وبعد ذلك قالت بصوت واضح هادىء يشعّ صدقاً وإيماناً :

– يقول الله تعالى في كتابه العظيم :

« قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . . .

صدق الله العظيم الذي يبين لنا تبارك وتعالى أن ما أمر به كل منا كي يتحقق فيه حقيقة الإسلام هو أن يخلص نفسه لله . . . ولكن وكيف يخلص المرء نفسه لله ؟ . .

لا بد أولاً من نبذه لكل شرك . . . رفضه لكل طاعة لأي كان إن كانت معصية لله رب العالمين . . .

ولا بد من تنقيته لضميره وأفكاره وتصوراته وأهوائه وأعماله عن كل ما لا يتفق مع دين الله . . . وأن يصوغ المرء نفسه صياغة صافية حسب منهج الحق . . .

ولا يتم هذا إلا أن يجعل المرء ربّه غاية ويتجه إليه جل جلاله بسكنات نفسه وخلجات قلبه . . . ليس في صيامه وصلواته وسائر عباداته فحسب . . . بل لا بد أن يسير في حياته كلها وفق شرع الله وحده . . . يحلّ ما أحل الله ويتبعه . . . ويحرم ما حرم الله ويجتنبه . . .

بهذا يسلك الإنسان سبيل الإسلام . . .

وبهذا فقط يكون ادعاء الإنسان صادقاً إن قال إنه قد أسلم نفسه لله في الحياة والممات . . .

وبهذا فقط يعلن الإنسان عبوديته الخالصة لرب العالمين ...
لله الواحد القوام المهيمن المتصرف المربي الموجه الحاكم
للعالمين . . .

وهنا تغيّر وجه أم هند وتلون بالأسى . . . فأشارت
بكفها للنسوة تستنهضهن :

– ولكن وا أسفاه . . . أنحن حقيقة لا نتبع في حياتنا
سوى توجيه الله لنا ؟ . . أنحن حقيقة لا نأتي بتصرف إلاّ ضمن
ما شرعه الله لنا ؟ . . رغم أننا نمضي السنوات نزعم بألسنتنا
أننا ما اتخذنا غير الله مربياً . . . وما اعتقدنا سواه متصرفاً . . .

أوّاه ما أقسى ظلمنا لأنفسنا . . . وما أبعد سلوكنا عن
أقوالنا . . . بل وما أجهلنا بتبعات ما نتلفظ به من أقوال . . .
وما أجهلنا بمعاني تلك العبارات التي ترددها الكثيرات منّا
صباح مساء . . .

فلتنظر كل منا في حياتها ولترَ . . . آالإسلام وحده من
يحدد لها خطاها في الحياة . . .

آالإسلام وحده مرجعها في كل شأن صغر أم كبر . . .

كفانا تخبطاً يا أخواتي . . . كفى بالله عليكن . . . ولنعد
الفكر والتأمل بهاتيك الآيتين الكريمتين ولنرَ البون الشاسع
بين ما أمرنا به كي يتحقق لنا إسلامنا وبين ما نحن عليه من
غفلة وتقصير . . .

خالطت كلمات أم هند أعماق النسوة ... فتكشفت لهن حقائق لطالما لُهين عنها ... رغم أنها من مبادىء الإسلام وبدهياته الأولى ...

وانبثقت دموع خاشعة من أعين منيبة ... وهن يسمعن صوت الأخت المربية ترتل عليهن بصوتها المؤثر مكررة كلمات الله تعالى لترسخ المعاني في النفوس ...

« قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » ...

... اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ...

... ووفقنا إلى طاعتك واجتناب معاصيك ...

ــ آمين ... آمين ... اللهم آمين ...

سألت إحدى النساء مترددة ... بصوت مرتفع وصل لأسماع الحاضرات :

ــ ولكن يا أختاه أما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم روايات عدة فيمن قال لا إله إلا الله دخل الجنة أو حرم الله عليه النار ؟ ..

ابتسمت أم هند شاكرة للسائلة تفاعلها ... ثم أجابت موضحة :

– كما تعلمين أيتها الأخت فالإسلام لم ينهض بكل أحكامه منذ البدء ، ولكنه اكتمل بالتدريج . . . فكانت المرحلة الأولى هي دعوة الناس للإقرار بشهادة (لا إله إلاّ الله) وذلك قبل فرض الفرائض وحدّ الحدود . . . وبذلك قالت طوائف من أساطين أهل العلم منهم الضحاك والزهري وسفيان الثوري . . .

وهذا الصدّيق رضي الله عنه خليفة رسول الله ، وثاني اثنين إذ هما في الغار . . . يقول « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » . . . واعتبر الممتنعين عن أداء الزكاة مرتدين. وحربه إيّاهم مشهورة . . .

فقالت امرأة أخرى وقد خيّم القلق عليها :

– بالله عليك يا أختاه . . . أما أبان الإسلام لنا طريق النجاة . . . فقد اضطربت نفسي وركبني الهلع . . . ويلي إن مت على هذه الحالة . . .

فتطلعت النسوة جميعهن إلى أم هند . . . يحدقن فيها برجاء . . . وكأن تلك المرأة قد عبرت بسؤالها عما يدور في نفس كل منهن . . . أجابت أم هند مرشدة ومنيرة السبيل لمن ليسلكنها فينجون :

– أيتها الكريمات . . . إن الله أرسل نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن الكريم ليهدي الناس طريق الرشد

والفلاح ... ورسول الله صلوات الله عليه وسلامه علمنا في حديثه كيف نهتدي وننجو ... وقال صلوات الله عليه وسلامه :

« كل أمتي يدخلون الجنة إلاّ من أبى ...

قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ ! ! ..

قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى » [1] ..

فالنجاة يا أخواتي هي في اتباع شرع الله ومنهجه الذي أوصله إلينا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.. والبوار والهلاك في معصية الله ورسوله ...

ألا فإن طريق الجنة واضح ... ووسيلته طاعة الله وطاعة رسوله ...

فإياكن ومعصية أحكام الإسلام ... إيّاكن ومخالفة دين الله ... إيّاكن والتولي عن شرع الله وسنّة رسوله ... وإلاّ فالجحيم والعذاب الأليم ينتظران ...

تابعت أم هند إلقاء الدرس بأسلوبها الشيق الذي شد النسوة فرحن يهضمن كل فكرة منه ويحرصن على كل كلمة وهن يتأججن تألقاً وانفعالاً ... نعم ... لقد قصرن كثيراً في الماضي ولكن لم يفت أوان الاستدراك بعد ... وها هو

---

(١) رواه البخاري .

ذا باب التوبة والإنابة مشرع فصممن أن يلجنه بلا إبطاء...
ففيه الخير والفوز العظيم في الدنيا . . . والنعيم المقيم الذي
لا ينفد في الآخرة . . .

وبعد انتهاء الدرس انهالت على أم هند وريقات كثيرة
تحمل أسئلة في أمور شتّى ، فوعدت أم هند بدراسة الأسئلة
وتصنيفهـــا ثم الرد عليها في نهـــاية درس الأسبوع التالي ،
كما دعت كل من لها سؤال خاص أو سؤال ذو طبيعة معينة
يُتحرج من إلقائه في درس المسجد أن تقدم إليها في منزلها
الذي دلتهم على عنوانه وأخبرتهن أنها ستفرغ يوم السبت من
كل أسبوع لاستقبال صاحبات تلك الأسئلة . . . وأنها ستكون
سعيدة جداً بلقائهن فهي تستشعر تماماً أن هذا أقل ما يجب
أن تقدمه . . .

انصرفت معظم النسوة ، وبينما همّت أم هند بصحبة
ابنتها هند أن تغادر المسجد اقتربت منها فتاة شاحبة الوجه
ينبض وجهها برجاء يخالطه خوف مبهم مرتعش . . .

توسمت أم هند أن هذه الفتاة تدخل المسجد لأول مرة . .
أو ربما ما اتجهت إليه منذ زمن طويل . . . طويل . . .

أمسكت الفتاة بيد أم هند . . . فأحست المرأة الخبيرة
أنها تتشبث بها وكأنها تصارع موجاً عاتياً يسحبها بعيداً بعيداً
إلى ذلك القاع المقيت النتن . . .

غمرت أم هند الفتاة بكل اهتمامها . . . وشجعتها على الانفتاح عليها . . . فباحت لها الفتاة بمكنون نفسها وتكلمت عن تلك التيارات الرافعة أعلاماً فكرية فيها السم الزعاف . . . وتحدثت عن حيرتها هي الفتاة التي لا تجد عوناً من أحد والمتروكة للشك وللهدامين الحاقدين يمثلون بفكرها ونفسها شر تمثيل . . .

همست أم هند وهي تستمع لها . . . وتكاد تبكي . . . وتبكي . . . ويحك يا أم هند . . . أيتها المقصرة . . : نسيت نفسك جالسة هناك في بيتك المريح وتركت واجبك . . . أهملت فرضك . . . وتركتِ هذه الفتاة للضياع والانحراف ولا شك أن مثيلاتها كثيرات . . . أنت يا أم هند التي تركتهن للتيار العاتي الهمجي بأنيابه الوثنية يجرفهن بعيداً بعيداً إلى القاع المقيت النتن . . . حقاً لست وحدك المسؤولة ولكنك أهملت دورك على كل حال . . . فبادري . . . بادري ولا تدخري وسعاً فأمامك الكثير . . . الكثير من الواجبات . . .

اصطحبت أم هند الفتاة معها إلى منزلها ، وأمضيتا وقتاً طويلاً . . . مر سريعاً هادئاً وصلباً إلى حد ما كصلابة الأشجار العطرة . . . قاسية ولكن ما أن تقطعها حتى تفوح منها روائح مسكرة تنعشك وتنسيك تعبك كله . . . ومرور خطوات الزمن كان يحمل الفتاة معه برفق وعناية إلى شاطىء متماسك البنيان تغطيه أشجـــار خضراء وورود زاهية . . .

هتفت الفتاة من خلال دموعها المتشابكة وقد أكبت على أم هند بصورة لا شعورية :

– ما سوى الإسلام باطل . . . ما سوى الإسلام باطل . .

ثم أردفت وهي تشرق بدموعها :

– ليتني التقيتك يا أماه منذ زمن بعيد . . . ولكن الحمد لله فقد التقيت بك وما زال في الوقت متسع . . .

نظرت أم هند بعيني الأم الرحيمة والمعلمة الحكيمة إلى الفتاة المهتدية ثم إلى ابنتها وعادت تنظر إلى الفتاة وهي تقول :

– ها قد أصبح لك يا هند أخت جديدة ويجب ألاّ تفترقا أبداً . . .

* * *

ضغطت رولا بكفيها على رأسها المنهك وراحت تفكر مذهولة . . . كيف تم هذا . . . وبهذه السرعة ؟ ! ! .

لقد ولّى كسراب توهج للحظة ثم خبا . . . شعرت أن نفسها تكاد تزهق . . . وانتابتها حالة غثيان خانقة . . . تمنت لو تمزق بسياط فولاذية قطعاً متناثرة تذوب شيئاً فشيئاً . . . وتتلاشى مع هبات الريح اللامبالية . . .

رفعت رأسها بقرف ونظرت إلى فريد فخيل إليها ذئباً

يمسح شدقيه المدميين من آثار فريسة غبية ، ودون أن يعيرها التفاتة ألقى بعقب لفافته وداسه بحذائه بعنف وأخذ يمرغه في التراب القذر . . .

تلفتت رولا حولها وهي تعرف ألا أحد سواهما في هذا الدغل الموحش . . . تمنت أن تُخنق . . . تُذبح . . . أن يهرس رأسها وتختفي الصور من عينيها . . . فحتّى فريد يتظاهر بألاّ علاقة له بما حدث . . . بل وأنه ما حدث شيء . . . ويا له من فظيع ذلك الذي حدث . . . توسلت يائسة بصوت متحشرج :

— فريد . . . لم نتفق بعد حول ما كنت تريد بحثه معي . . .

بصق ساخراً . . . ورماها بنظرة محتقرة :

— أنا ؟ ! . . وأي موضوع هذا الذي أبحثه معك أنت ؟ !

فردت بصوت أشبه بعويل استغاثة واهنة :

— أما قلت إن والديك طلبا منك اختيار من ترضاها زوجة لك . . . وإنك ما وجدت سواي لمصارحتها في ذلك الأمر . . . أما أتينا إلى هنا لنناقش هذا الأمر بهدوء ؟ . . . فريد أنسيت ؟ ! . .

رمقها بازدراء وهو يقول في نفسه . . . أهي غبية إلى هذا الحد . . . أتظن أن اختارها زوجة لي ؟ ! . . ولِمَ

ما دمت قد قضيت وطري منها وما دم هناك الكثيرات بغبائها ؟.

ثم قال آمراً وهو يتجه إلى السيارة متجاهلاً عويلها :

قومي إلى السيارة . . . فقد مللت . . . هيا ولنعد . . .

تمتمت شاردة وكأنها لا تصدق أذنيها . . .

— مللت ؟ ! . . أنعود قبل أن تعدني ؟ ! . .

فقاطعها صارخاً بفظاظة . . .

— كفاك هلوسة . . . وهيا إلى السيارة إلاّ إن كان يروقك أن تقضي ليلتك وحيدة هنا . . .

ثم تابع مستهزئاً :

— إنه مكان رائع في الحقيقة . . . وفي هذه الحال سألقي إليك بحقيبتك من السيارة لأنني بدأت أشعر بالاشمئزاز . . .

وتعالى عويلها الهستّريائي وهي تصرخ بلا وعي :

— مللت ؟ ! . . تشعر بالاشمئزاز ؟ ! . . وأنا ؟ . . أنا الحمقاء التي صدقتك ووثقت بك . . . أيها الوحش . . . أيها المجرم الكريه . . .

وهجمت عليه لتمسكه قبل أن يهرب ولكنه ركلها بقدمه على بطنها ، وهزها من شعرها بعصبية يمنة ويسرة عدة مرات ثم ألقاها أرضاً فوقعت تتلوى ألماً وقد تكورت على نفسها . . . وتسحج وجهها وذراعاها . . .

ثم خفت نحيبها الحاد الذي كان يمزق سكون الدغل . . .
فامتزج هدوء الحرش مع ظلام الليل الزاحف . . .

• • •

ساق فريد السيارة بسرعة جنونية . . . ولم يبادل المحطمة كلمة واحدة . . . ولم يلق عليها حتى نظرة . . . ولكنه كان يبصق بين الحين والحين مستخفاً وتاركاً إياها لمأساتها المفجعة تسحقها وتفتتها . . .

أوقف السيارة أمام مدخل المدينة وأشار لرولا أن تغادرها..
لم تفهم قصده . . . إذ اعتادت أن يوصلها لشارع جانبي قرب منزلها عندما تركب معه . . . أإلى هذا الحد أصبح يحتقرها . . . حتى هو . . . هو ما عاد يقيم لها شأناً . . . مد يده فاتحاً لها الباب وقاطعاً عليها ترددها . . . ففهمت أنه يطردها . . . ولم يمهلها حتى لتسكن شعرها المتطاير . . . أو لتزيل الغبار عن ملابسها . . . أو آثار التراب العالق بدم السحجات على ذراعيها . . . أو أخاديد الدموع عن وجهها المتسخ . . .

نزلت . . . وانطلق هو بالسيارة دون أن يفوه أحدهما بكلمة . . . فما حدث تجاوز حدود الكلمات . . .

سارت إلى موقف الحافلات بهيئتها الملفتة للانتباه والمثيرة لألف استفهام . . . فكانت تحس أن كل من يراها لا بد أن يكتشف فوراً حقيقة أمرها . . .

ركبت الحافلة . . . وعندما مرت بها أمام الساحة المشرقة على مسجد النورسي تذكرت أن نوراً قد دعتها لحضور الدرس الديني في عصر ذلك اليوم . . . قفز إلى رأسها الإعلان الذي كتبته نور على سبورة قاعة المحاضرات ، وأنها كانت قد وعدت نوراً بالمجيء ثم غيرت رأيها بسبب اللعين . . . لم تستطع الانسياق مع أفكارها فقد عادت المأساة لتحتل رأسها وتلقي بها مدمرة في مستنقع اليأس . . .

دلفت إلى منزلها واتجهت إلى غرفتها كالمخدرة دون أن تتبادل كلمة مع أحد . . . حتّى ترحيب والدها المريض تركته معلقاً في الهواء بدون إجابة . . . ودفنت نفسها في فراشها دون أن تخلع حتّى حذائها . . . وقد استغرقها قنوط كامل جمد تعابير وجهها . . .

تسرّب حديث أمها إلى أذنيها إذ كانت تحدث زوجها عن الدرس الديني الذي دعتها جارتها لحضوره اليوم في مسجد النورسي . . . وعقبت الأم :

– صدق رسول الله يا أبا سامر فالمساجد رياض الجنة في الأرض ، وجزى الله عنا الأخت المربية كل خير . . . صدقني يا أبا سامر أشعر أنني عدت شابة ولديّ الكثير لأعمله.. حتّى ابنتانا راوية وسوزان اندمجتا مع الأخت المعلمة وتابعتاها بشغف . . . آه . . . كم تمنيت لو ذهبت رولا معنا . . . لكم يقلقني وضعها يا أبا سامر . . .

وغاب حديث والديها عن مسمعها إذ دخلت أختاها راوية وسوزان إلى الغرفة – وهما في المرحلة الإعداديـة ، في الصف الثاني الإعدادي وسوزان في الصف الأول الإعدادي – وما لبث أن دخل وراءهما أخوهما ماجد وهو في الصف الأول الإعدادي أيضاً . . . لم ينتبه الثلاثة إلى رولا التي بدت نائمة ، فراحوا يتهامسون . . . حيث أخذت راوية تحكي لماجد ما دار في المسجد وشاركتها سوزان في تذكر فقرات من الدرس . . . وحكتا له كيف أصرتا على أمهما فاشترت لهما بعض القصص والكتب الإسلامية من المسجد حيث انتهزت إحدى النسوة فرصة الدرس لتبيع كتباً إسلامية في المسجد . . .

ثم هدأ الثلاثة وقد أمسك كل منهم قصة أو كتاباً واندمج معه يلتهم ما فيه بتلذذ وحماسة ، وفجأة تذكرت راوية أمراً فقالت لماجد هل رأيت هدية رولا ؟ . . . انتبهت رولا من خمودها وركزت سمعها دون أن تشعرهم . . . أردفت راوية :

– لم نخبرك عن صديقة رولا . . . يا الله ما ألطفها . . . لقد جلست بجانبي مصادفة . . .

قاطعتها سوزان :

– وقد أحبتني جداً . . . إنها كالملاك ليتها كانت أختي . .

وتابعت راوية سعيدة :

— لقد سألتني عن اسمي وصفي ... ولما سألتني إن كان لي أخت أكبر مني أخبرتها أن أختي الكبرى رولا تدرس في كلية الطب ... فاكتشفت أنها تعرفها بل وكانت قد دعتها لحضور الدرس أيضاً ...

وسبقت سوزان راوية قائلة :

— وبعد انتهاء الدرس اشترت كتاباً وكتبت عليه إهداءً وبعثته معنا إلى رولا ...

ثم تطلعت إلى رولا المتناومة وقالت :

— إن شاء الله تستيقظ بسرعة كي أعطيها إياه ... فلا بد أنها ستسر به ...

فاجأ الخبر رولا ... فهذا طارىء غير متوقع وأحست ببعض الراحة تتخلل بؤسها ... فرفعت رأسها ... مما أربك إخوتها ... فهي كانت تسمعنا إذاً ... طلبت من راوية أن تأتي بالكتاب ... أسرعت سوزان وراوية لتحضراه بينما أخذ ماجد يتأمل قلقاً وجه أخته المضطرب ... أحرجتها عيناه المتسائلتان فأشاحت بوجهها للجهة الأخرى ... وسرعان ما عادت الأختان راكضتين وهما تتخاطفان الكتاب وكل منهما تريد أن تقدمه بنفسها لأختها الكبرى ... ويبدو أنهما اتفقتا أخيراً أن تقدم لها كل واحدة جزءاً من الكتاب المؤلف من جزئين ... جلست رولا باهتمام وأمسكت بالكتاب

فأثارها العنوان . . . « الطب محراب للإيمان » . . . فهو متعلق بنوع دراستها . . . تصفحته . . . ثم بحثت عن الإهداء . . . ترى من هي صديقتها تلك ؟ . . نور . . . لا . . . إنها هي . . . نور . . .

وعلى الصفحة الأولى من الجزء الأول قرأت رولا :

« بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي رولا . . .

كم تمنيت لو كنت معنا ، فالكثيرات من زميلاتنا قد حضرن فامتلأ المسجد بأنماط متباينة من اللباس لو رأيتها لعجبت أن تجتمع في مسجد . الدرس ممتع جداً وبالغ الإفادة . . .

أهنئك بأختيك راوية وسوزان وقد تفاءلت بهما خيراً. أختي رولا ثقي أن لك أخوات في الله يردن لك كل الخير . . . ولا تنسي أيتها العزيزة موعدنا الدائم بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة في مسجد النورسي

أختك نور »

• • •

انتفض والد ماجدة عندما علم أن ابنته ذهبت اليوم إلى مسجد.. نظر إلى زوجته غير مصدق وهو يهم بإيقاظ ماجدة رغم

أنها كانت الثانية صباحاً ! ! .. فهو الآن فقط قد عاد من لقائه مع جماعته ... صرخ حانقاً بزوجته :

— كيف سمحت لها ؟ ! ! .. كيف ؟ ! .. أتريدين تحطيمي وتحطيم نفسك ؟ ..

ولكن زوجته وقفت في وجهه تمنعه من دخول غرفة ماجدة ... فاقترب منها وهو يصرّ أسنانه من الغيظ :

— هيفاء ... دعيني ... أرجوك أتركيني أتفاهم معها ..

ردت بحزم وهي تحاول خفض صوتها كيلا تستيقظ الفتاة :

— ليس الآن يا محمد ... ستحدثها في الصباح ...

— هيفاء أنا أكاد لا أصدق ... ابنتي أنا تذهب إلى مسجد ! ! .. بل وإنها ابنتك أنت أيضاً ! .. مسجد يا للسخرية ... لا لن أستطيع النوم قبل أن ...

— اهدأ الآن ونم ... ثم ما دامت اقتنعت فلِمَ تريد إجبارها أن تدوس قناعاتها ؟ ! ..

— اقتنعت ؟ ! .. أتقولين اقتنعت ؟ ! .. إنك تحطمين رأسي ... ابتعدي ... ابتعدي من طريقي ...

أيقظت الضجة المتعالية ماجدة ، ففهمت أن الصراخ إنما يدور حولها وحول ذهابها اليوم إلى مسجد النورسي ... وعلى كل حال فقد توقعت هذا وأكثر منه ... ولكن ما أثار

دهشتها هو موقف اللامبالاة من قبل والدتها . . . فوالدها
من أقطاب اتجاه فكري وسياسي من أغرب ما يمكن أن يصدر
عنه أن يتجه أبناء عناصره إلى . . . إلى الله ! ! ! . . فهذه
إساءة بعرفهم تلطخ سمعة العضو بل وتؤثر على مكانته بين
جماعته . . . ولكن ماذا تفعل . . . فهي لم تستطع منذ صغرها
الانسجام مع تلك الأفكار بل كانت تزداد نفوراً منها بتوالي
السنين ونمو وعيها . . . فكان أن عاشت أرضاً بكراً وصفحة
بيضاء بانتظار أن تخط قناعاتها بنفسها في صفحة فكرها عندما
تكتشف الحقيقة التي يرتاح لها عقلها وضميرها . . . الحقيقة
الموضوعية دون تزييف أو إرغام . . . وكانت تشعر بتشجيع
غير مباشر من أمها ينمي فيها هذه الروح . . . والآن . . .
الآن وجدت ما افتقدته طويلاً . . .اكتشفت الحقيقة الكبرى..
وامتلكت القناعة فلم تنتظر إذناً من أحد بل نقشتها بلا تردد
أو إبطاء في عقلها وقلبها وسرت إلى كل خلاياها. . . وأصبحت
قناعاتها تعادل بالنسبة لها الحياة . . . بل والممات أيضاً . . .

جاءها صوت أبيها قاطعاً يصرخ مخاطباً أمها :

– هيفاء نفد صبري . . . ابتعدي أيتها المتهاودة . . .

وأزاح الأم بعنف وكاد يحطم الباب وهو يندفع إلى غرفة
ماجدة ، فوجدها واقفة في منتصف الغرفة يشع من عينيها بريق
الإصرار سامياً متحدياً . . . جفل أمام تلك العزة المتشامخة . . .

فجاء صوته أشبه بالبكاء :

– ماجدة أحقاً ... أحقاً ما سمعته ؟ ! ! ..

سطع جبين الفتاة النحيلة إباءً ، وأكدت ملامحها المطمئنة هواجسه ...

– تكلمي ... كيف تم هذا ؟ ! .. كيف !.. أتتجاهلين من هو أبوك ! .. أتتناسين من هي أمك ؟ ! ..

انكمشت الفتاة الضعيفة الجسم على نفسها فهي خبيرة تماماً بنوبات غضبه العاصفة التي تكاد تدمر كل شيء ... مرت الثواني بطيئة وهو يتميز غيظاً ... جمعت ماجدة شعرها عن وجهها وانساب صوتها صافياً ...

– عشت يا أبي حياتي وأنا أسمع أنني ابنة رجل « تقدمي » وأم « تقدمية » ... وأنكما تناضلان لينعم الناس كما تقولان بالحرية ... وها أنا ابنتكما قررت بنفسي وآمنت بقناعاتي ... وهذا كل شيء ...

ثم أسبلت ذراعيها وقد أرهقها النعاس ومغالبة مخاوفها من موجة ثورة الغضب التي تلوح خلف نظارتيه ... تقدم إليها وهو يضغط قبضتيه ... أمسكت به الأم من كتفيه تستعطفه ... ولكنه استدار فجأة ووجه إليها صفعتين رمتاها أرضاً ثم هجم على الفتاة الزكية يهزها من كتفيها وهو يصيح ويشتم من في الأرض ومن في السماء ! ! ! .. فنسيت ألمها

ولم تحس بالكلمات يكيلها لها هذا التقدمي - المناضل من أجل
حرية الشعوب ؟ ؟ ؟ . . . - على كل أنحاء جسدها الضاوي
ولكنها كانت تتمزق قهراً من كلماته الفظيعة العفنة . . .
وتجهد فتسد أذنيها كيلا تسمع عباراته الشوهاء فيعود هو
ليبعدهما عن أذنيها . . . فتروح تهز رأسها هزاً من الأسى
وهي تبكي بكاء مرّاً في هجع الليل الأخير ألماً من ذلك التعذيب
النفسي القذر الذي أحاطها أبوها به . . .

لم يشتف رغم وقوع ابنته على الأرض منهكة من آثار
قدميه وقبضتيه فأخذ يركلها بوحشية مسيلاً الدماء من فمها
وأنفها . . .

ثم تعثر وهو خارج من الغرفة بزوجته الرفيقة الملقاة أرضاً
بفعل عنفه الثوري المشروع ضد الانحرافات المهادنة للاتجاهات
الرجعية ! ! ! . . . فأفاض عليها آخر ما تبقى من حيويته
النضالية ركلاً وشتماً . . . ثم التجأ ذلك الدموي الأحمر إلى
غرفته مخلفاً امرأتين مكدودتين على الأرض تنتشر على جسديهما
آثار الصراع الفكري والعقائدي ! ! . . .

الفصل الثامن

عندما تصبح السيئات حسنات

« إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً » . . .

صدق الله العظيم



أفضت نور لصديقتها مي عن قلقها المستفحل لغياب ماجدة . . . فهذا هو اليوم العاشر منذ آخر مرة التقتها بها وكان ذلك في مسجد (النورسي) . . . ومنذ ذلك الحين وهي متغيبة عن دوام الكلية كما أنها لم تحضر الدرس الثاني في المسجد .

ناقشت الصديقتان الأمر معاً . . . وشرحت مي لنور ظروف ماجدة العائلية والتي كانت نور تجهلها تماماً . . . وأخبرتها أن إحدى صديقاتها جارة لماجدة وهي التي نقلت إليها أحوال والديْ ماجدة . . .

ثم اتفقتا أن تتصلا بصديقتهما المتغيبة هاتفياً علّهما تطمئنان عليها . . . فاتصلت نور وتحدثت معها والدة ماجدة على الطرف الآخر من الهاتف . . . وما أن عرفتها أم ماجدة حتى دعتها لزيارة ابنتها وقالت أنها ترحب بها إذ ستسر ماجدة بزيارتها فهي ما تفتأ تتحدث عنها. . . فاستأذنتها نور باصطحاب

إحدى صديقاتها معها . . . ولم تمانع أم ماجدة ذلك كما تمنت أن تتم الزيارة قبل الثانية عشرة ظهراً . . .

أطلعت نور مياً على نتيجة الاتصال الهاتفي . . . واتفقتا أن تأخذا معهما مجموعة من الكتب كهدية . . . فاختارتا كتباً تبين تهافت الفكر اللاإسلامي الذي يجاهر والدا ماجدة باعتناقه كما توضح في الوقت عينه عظمة الإسلام وكونه الحقيقةالمحض.

قالت مي لنور وهما تصعدان سلّم العمارة الفخمة التي تقطن فيها أسرة ماجدة . . . إنها تخمن أن والدة ماجدة اختارت هذا الوقت لتضمن غياب زوجها عن المنزل . . . فسألتها نور إن كانت تعني شيئاً محدداً !. . وردت مي بثقة أن ذلك لا بد أن يكون خيراً بإذن الله . . .

استقبلتهما أم ماجدة وحاولت ألا تثير في نفسيهما الحرج.. وردتا ترحيبها بكثير من اللباقة المشوبة بحذر فطن . . . ثم أدخلتهمـــا إلى غرفة ماجـــدة التي كـــادت تبكي لرؤية صديقتيها . . . وكان اللقاء مؤثراً بين الأخوات الثلاث . . . وقالت ماجدة إنها لم تحصل على رقم هاتف ي من صديقاتها لتتصل بهن . . . فاعترفت مي ونور أنهما المقصرتان إذ تأخرتا بالإطمئنان عليها . . . كما أخبرتهما ماجدة أنه أجري لها عملية إسعافية بسبب تمزق متأخر في الطحال . . . ولكنها ارتبكت فلم تستطع أن تشرح لهما سبب ذلك التمزق إذ غرقت بدلاً من ذلك في دموعها . . . هونت الصديقتان على أختهما

الأمر . . . وقالت نور محاولة تجاوز الانفعال :

– المهم أنك بخير الآن يا أختاه . . . والحمد لله على عافيتك . . .

غير أن « الرفيقة هيفاء » تولت شرح الأمر لهما كما حصل تماماً ، وهي تجلس على طرف سرير ماجدة وتداعب يمناها شعر ابنتها . . . وعندما أنهت تفاصيل الحدث ضمت رأس وحيدتها بكفيها وقبّلته قائلة بدعابة :

– ولكننا قاتلنا في خندق واحد . . . أليس كذلك يا حبيبتي ؟ . .

ثم التفتت إلى الزائرتين قائلة بجدية :

– إن تكن ماجدة أختاً لكما في المبدأ فهي ابنتي بروابط النسب والدم . . .

فقالت ماجدة ملطفة الجو بين أمها الرفيقة وأختيها المؤمنتين :

– لولا تجاوب أمي لما عرفت كيف أصلي وأنا مستلقية في السرير طوال الوقت . . .

ابتسمت الأم وقالت موضحة :

بعد العمل الجراحي أصرت ماجدة أن تؤدي صلواتها ... وحيرنا معاً . . . فهي لم تكن تعرف كيف يجب أن تصلي

وهي بحالة الضعف الشديد . . . ففكرت ماذا أفعل . . . وقلت في نفسي طبعاً لن أدخل مسجداً لأسأل شيخه فلربما اربكته أو أثرت سخط المصلين . . . فلم أجد حلاً إلاّ الذهاب إلى إحدى المكتبات الإسلامية وسؤال قيّم المكتبة عن هذا الأمر . . . وهكذا كان . . . وللحقيقة ما كنت أتوقع هذه المعاملة . . . وأشهد أن الرجل يتحلى بغاية اللباقة والاحترام وأجابني عن عدة تساؤلات دون أن تكبله عقد . . .

أمسكت ماجدة شعر أمها بحنان وقبّلته مردفة :

– ولم تنس أمي أن تحضر لي بعض الكتب الإسلامية . . . فأمضيت فترة النقاهة بقراءتها . . .

وامتلأ قلب الأم بفيض من مشاعر الأمومة نحو ابنتها فقالت بنبرة لطيفة وهي تغالب عواطفها :

– ولكنني قرأتها كلها يا ماجدة بينما كنت ما تزالين في الكتاب الأول . . .

ثم اتجهت الأم بحديثها إلى مي ونور مستنصحة بشكل غير مباشر :

– في الحقيقة وجدت أشياء مفيدة في تلك الكتب . . . ولكنها لم تنه لي مشكلتي . . . وقد تولدت لديّ قناعة من وجود أبحاث إسلامية أكثر دقة ونفاذاً . . . وإن لم أوفق إليها بعد . . .

وجدت مي الفرصة مواتية فاستغلتها بلباقة خاصة وأن والدة ماجدة لم تبدِ عنجهية . . . فرجت مي ماجدة وأمها أن تقبلا الهدية المتواضعة . . . صدق تخمين الأم فها هي ذي الهدية تلج الموضوع مباشرة وبدون مواربة . . . فتناولت الهدية شاكرة وفكت ورق التغليف ووضعت الكتب في متناول ماجدة . . . وراحت الأم تتصفحها وتنقب في فهارسها باهتمام . . . فكان واضحاً أنها تبحث عن أفكار معينة إجابة عن تساؤلات محددة سبق لها تعيينها . . .

غمرت فرحة رائعة صدور المؤمنات الثلاث وهن يلحظن علائم الرضى على وجه أم ماجدة التي رفعت عينيها قائلة بإعجاب :

– إنها كتب قيمة . . . الظاهر أنها تكشف تناقض تلك (الأفكار الدموية) بكفاءة رائعة . . . لا شك أنها منتقاة بعناية وخبرة . . .

ثم التفتت إلى ماجدة وعادت تجيل بصرها بين الأخوات المؤمنات وعيناها تلمعان بتفاؤل . . .

– أعدكن أنني سأقرؤها . . . بل سأدرسها . . . وأنت يا ماجدة يجب أن تدرسيها حتى يصبح التزامك عن علم ودليل . . .

اقتنعت المؤمنات أن أم ماجدة تضمر في نفسها أمراً ما

للمستقبل رجوّن أن يكون خيراً عميماً . . . وقد تأكد لهن ذلك عندما طلبت أم ماجدة منهن عنوان أم هند ورقم هاتفها . . . وأوحت لهن كتمان ذلك وحصره في أنفسهن . . .

* * *

تلاحقت الأسابيع غنية بالأحداث . . . وبدا كل شيء موفور النشاط . . . وبشيراً بإشراق الفجر الجديد ولو بعد حين.

فمهند قد استقر في عمله الجديد ، وانغمس في إسلامه بعبّه فقهاً وتطبيقاً . . . ووافقت نداء على الاستعجال في السير بترتيبات عقد القران بعد أدائها لامتحانات الثانوية العامة مباشرة أي خلال أقل من شهرين . . . ولم يكن مهند ليهمل تذكير أصدقاء جاهليته الغاربة ودعوتّهم للحياة الكريمة في ظل الإسلام . . .

ومها أصبحت أختاً في الله لندى لا تكاد تفارقها ، ولم تكن لتفوت على نفسها درساً من دروس الأخت أم هند . . . كما زاد حرصها على مصروفها القليل إذ اقتنت من مدخراتها نواة مكتبة إسلامية . . . ودرجت على ألاّ تشتري كتاباً إلاّ بعد أن تهضم سابقه . . . وهي في كل ذلك تعمل بتوجيهات أم هند التي ما كانت لتبخل بها على أحد . . . ولم تنس مها أيضاً أن تخصص ركناً في مكتبتها للقصص والكتب الإسلامية المبسطة من أجل أخيها ماهر . . .

ولكن وضع رولا البائس – والذي ما كان ليخفى على أحد – أثار التساؤلات من حولها ، إذ يكفي أن يلحظ المرء تلك الكآبة القاتمة التي تلفها لفّـاً حتى يحس بالإشفاق عليها : والصمت . . . الصمت ذلك الوحش الذي كان يبتلعها بعيداً بعيداً عن شواطىء مرحها . . . وكأنها خمدت فجأة ودخلت في شيخوخة مبكرة . . .

وكلما حاولت نور أو ماجدة اجتياز حاجز صمتهما . . . صدمتهما نظراتها القلقة. . . وتلك العبارة التي ما ملت تردادها على مسامعهما :

– إنكما سعيدتان . . . تعيشان مطمئنتين . . . لا شك أن الله راضٍ عنكما وأنكما راضيتان عن نفسيكما . . .

ويوماً أطالت رولا التأمل بنور من وراء عينيها الكابيتين وقد جمدت سحنتها وذابت نضرة وجهها . . . فتفجرت نور بعطف مؤلم ينبثق ينابيع من نفسها . . . فاقتربت منها وربتت على كتفها محاولة مد الجسور معها :

– رولا . . . ألا تريدين كتابة نتائج التجربة ؟ ! . . فالجلسة تكاد تنتهي ! ! . .

– لا فائدة . . . لا فائدة . . .

– رولا ما بك ؟ ! . . ألا تثقين بي ؟ ! . .

ـ إني أغبطك . . . إنكن سعيدات . . . جميعكن سعيدات . . . ولكنني المحطمة . . . محطمة كدمية خزفية وقعت وتناثرت قطعها . . . ولم يبق منها شيء . . .

ـ ما هذا الكلام يا رولا ؟ . . إنك شابة . . . والمستقبل أمامك . . .

فقاطعتها ذاهلة وكأنها تخاطب نفسها :

ـ إنك مطمئنة ومرتاحة الخاطر . . . فتظنينني كذلك ؟ . . ولكنني انتهيت . . . انتهيت وأصبحت أشلاء ممزقة . . .

ثم أمسكت بحقيبتها وهرعت مسرعة لا تلوي على شيء حتى دون أن تودع صديقتها . . . وما كادت رولا تخطو شاردة خطوات في ممر الكلية حتى أوشكت أن تصطدم بشخص ما . . . رفعت بصرها . . . وإذا بها أمام فريد ـ الذي كان يتحاشى الالتقاء بها حتى انه انتقل إلى فئة أخرى ـ تقلصت عيناها وتمتمت :

ـ أنت ؟ ! . .

لم يستطع التملص فالممر مليء بالطلبة . . . فوقف على مضض . . . ورد بجفاف . . .

ـ أهلاً رولا . . .

ـ فريد . . . أنا محطمة . . .

– لماذا ؟ ! . . ما الخبر ؟ ! . . . أهي كثافة الدراسة ؟ !.

– فريد . . . إنك تتهرب . . .

– أبداً . . . لنعد صديقين إن شئت . . .

– صديقين ؟ ! . . أنسيت ما بيننا ؟ ! . .

– وما الذي بيننا ؟ ! . . . زميل وزميلة جمعتهما الدراسة.

– فريد أرجوك لا تتهرب . . . لقد أخطأنا ويجب أن تتحمل المسؤولية معي . . .

– أنا ؟ ! . . . أنا أخطأت ؟ ! . . .

وضحك ضحكة قصيرة باردة حمّلها جرعة كبيرة من السخرية . . . ثم أراد الإفلات من رولا . . . إذ أن جدالهما قد لفت انتباه الآخرين . . . إلاّ أن رولا لم تفسح له المجال للهرب إذ وقفت في طريقه وصرخت مقهورة :

– فريد إنك تتجاهل . . . فريد يجب أن نتزوج . . .

– نتزوج ! . . أنا . . . أنا أتزوجك ؟ ! ! . . اذهبي وابحثي لنفسك عن غبي ذي قرنين يرضى بعهرك . . .

فانفجرت باكية هكذا . . . هكذا إذن . . . ثم استجمعت شتاتها وراحت تصرخ يائسة :

– حقير . . . حقير . . . حقير . . .

فاتجه نحوها وقد تراقص حقد أسود على وجهه . . .

وأهوى بلطمة مدوية على وجهها . . . فبهتت وتجمدت في أرضها منفية الحركات عدا شفتين ترتجفان بذعر . . . ولكنه لم يشتف فبصق عليها نافثاً غيظه وهو يصرّ على أسنانه مخرجاً أحرفاً مشوهة :

— ساقطة . . . ساقطة . . .

* * *

عاد والد ماجدة وقد قارب الليل على الانتصاف . . . ولم يخب توقعه فالسكون يعم البيت . . . نظر ناحية غرفة ماجدة وفكر بالاقتراب من الغرفة المطفأة الأنوار إلاّ أنه تراجع . . . شعر بالوحدة تلفه فأحس بحاجته (للرفيقة هيفاء) . . . أسرع إلى غرفة النوم . . . فتحها بسرعة . . . ولكن لا أحد . . . إذاً فالرفيقة هيفاء ما تزال عاتبة عليّ من أجل ماجدة . . . عاتبة ؟ ! . . بل قل غاضبة . . . حاقدة . . . آه . . . لقد احتملت مني الكثير . . . وقاست من انفعالاتي الأسى . . . ولكنها كانت دوماً تصفو بسرعة إلاّ هذه المرة ! . . فكر أن يدخل إليها في تلك الغرفة المنعزلة التي هجرته فيها . . . اجتاز الردهة والممر وبجانب المطبخ كان ذلك الباب . . . مد يده ليفتحه . . . ولكن . . . لكن كيف ستتصرف ؟ . . أنسيت أنك أهنتها وشتمتها . . . بل وضربتها بيديك وقدميك . ثم أتحسب أنها ستغفر لك تمزيقك طحال ماجدة وتعريضك

إيّاها للموت ؟ ! . . ابتعد عن الباب حانقاً . . . كل ذلك
من أجل الـ . . . عليهم اللعنة . . . إنهم ينطحون برؤوسنا
الجدار الصلب لتسلم رؤوسهم . . . آه . . . كم أصبحت
أتمنى أن تقع تلك الرؤوس تحت مطرقتي . . . أولئك السماسرة
الدوليّون . . .

وعاد إلى غرفته . . . وعاد الضيق يملأ نفسه . . . منذ
شهرين تقريباً وهو يعيش وحيداً . . . حتى في بيته فهو لا
يتكلم مع زوجته أو ابنته بل وتكادان لا تريانه . . . يأتي وهما
نائمتان وما أن يستيقظ حتى يغادر البيت . . .

خلع حذاءه . . . ولم يجد همة ليخلع ملابسه فأزاح غطاء
السرير لينام . . . ولكن ما هذا ؟ ! . . إنه كتاب . . . كتاب
تحت غطاء السرير ! ! . . أمسكه . . . وعلى الكتاب رسالة . . .
أحس بفرح يشبه فرح الطفل بهدية لم تكن متوقعة . . . ركز
نظارتيه . . . إنها من ماجدة . . .

قرأ بصمت ملتهماً الأحرف :

« أبي . . . إنك أبي رغم كل شيء . . .

ومهما أسأتَ لي فعقيدتي تحتّم عليَّ برّك إلاّ أن تأمرني
بطاعة فيها معصية لله . . .

إنك علمتني ألاّ آبه بالآخرين . . . وأن أدافع عن أفكاري
أمامهم مهما وجدوها غريبة ومستهجنة . . . وألاّ آلو جهداً

في التبشير بما أؤمن به . . .

أبي إني أدعوك بدعوة الإسلام . . . وأن تعود لتناقش أفكارك . . .

أبي أتمنى أن تدرس هذا الكتاب . . .

ابنتك رغم كل شيء

ـ ماجدة ـ

أمسك الكتاب . . . قرأ عنوانه . . . تصفحه . . . قرأ فهرس موضوعاته . . . وعاد إلى كلمات ماجدة يقرؤها ويقرؤها . . . أحس بسور في داخله يتهاوى . . . فكر ترى . . . أمِن هنا تبدأ عمليات الهجرة نحو الطرف الآخر . . . حاول أن يبتسم ساخراً ولكنه فشل . . . أتراه يهجر هو وهيفاء السرب . . . أو تراها اتخذت قراراً ما ؟ . .

نفخ بلا مبالاة كانت غريبة عنه . . . وإن حدث هذا وقررتْ . . . فماذا أفعل . . . أأذبحها ؟ . . رمى بالخواطر من نفسه وأمسك بكتاب ماجدة وغاص معه في المقعد الوثير . .
ومضى الزمن . . . وتراكضت الثواني تلحقها الدقائق والساعات وتردد صدى الأذان في الأفق . . . دقائق . . . ثم رنَّ المنبه في غرفة ماجدة . . .

استفاقت المؤمنة وقامت لتتوضأ . . .فلمحت النور يتسرب من تحت باب غرفة أبيها . . . نبض قلبها بالتساؤل . . .

أتراه يقرؤه ؟ ! . .

توضأت ووقفت تصلي خاشعة وصوتها يغزو بكلمات الله نفس أبيها . . . فلا يجد ما عهده من التذمر في نفسه . . . بل ترك الصوت يمر بهدوء حتى حناياه . . .

أتمت ماجدة صلاتها وقرأت آيات من القرآن الكريم . . . ثم أرادت العودة لفراشها فجاءها صوت أبيها . . . متناسياً كل ما حصل . . . الإهانات . . . والضرب . . . والشهرين من المقاطعة والعمل الجراحي . . . جاء صوت الأب متجاهلاً كل هذا . . .

– ماجدة . . . ماجدة . . .

طرقت الباب على أبيها . . . ودخلت متمهلة وهي ما تزال بلباس الصلاة الأبيض تشع صفاء ويقيناً كملاك . . . نظر الأب والفتاة كل إلى الآخر . . . أرادت أن تتكلم . . . أن تقول شيئاً ولكن ضاعت عنها الأشياء . . . فبقيت واقفة قرب الباب تنظر إليه . . . خاف دون سبب من سكينتها التي ما عرفها في حياته . . . حار في تفسير معنى نظراتها . . . أراضية هي . . . حزينة . . . أما هي فقد راعها مشهد أبيها المرهق فهو ما زال بثيابه الرسمية رابضاً خلف نظارتيه . . . وهالتان من الإنهاك تحيطان بعينيه . . . والكتاب على المنضدة بجانبه . . . وأعقاب اللفافات تملأ منفضة السجائر . . . بينما عبق دخان السجائر المخرش في الغرفة وأعطى النور لوناً رمادياً كئيباً . . .

ـ لقد قرأته يا ماجدة :

حارت أتفرح . . . أتقبّل أباها . . . ولكن ترى ما الذي خرج به من الكتاب ؟ ! . . أقرأه وقد أصدر قراراً مسبقاً ؟ . . أرادت أن تسأله . . . أن تقول شيئاً . . . أي شيء . . . ولكن حفيفاً في الردهة قطع عليهما خلوتهما . . .

استدارت فوجدت أمها خلفها . . . ولكنها بثياب بيضاء.. إنها ملابس صلاة بيضاء . . . لم يَدْرِ الأب بما رأته ماجدة . . . مرت ثانية اغتسلت فيها ماجدة بانبهار لذيذ . . . ثم أنهتها بصرخة فرحة وهي تلقي بنفسها على أمها وتعتنقها بمزيج من ضحك وبكاء :

ـ أمي . . . أمي . . .

التزمتها الأم بحنان وقبّلتها مخففة من دهشتها الصاعقة . ودخلتا معاً وقد التصقت ماجدة بجناح أمها . . . شُدِهَ الأبُ وقام واقفاً . . . اختنق الكلام في صدره . . . ثم وبصعوبة خرج صوته أبَحّ خافتاً :

ـ هيفاء . . . ؟ ! ! . .

كانت الأم تبتسم مطمئنة . . . وقالت بنبرة لطيفة :

ـ اجلس يا محمد . . .

جلس الرجل . . . شعر برأسه يثقل . . . تذكر جماعته . . . والمهاجرين من السرب . . . والطرف الآخر . . . ضغط

رأسه بين يديه . . . ثم عاد ونظر مُسَلِّماً إلى المرأتين اللتين ترتديان ملابس الصلاة البيضاء . . .

أشارت الأم إلى ماجدة :

– يبدو أن أباك يعاني من الصداع . . . هاتي قرصاً مسكناً وكوب ماء . . .

خرجت ماجدة ملبية طلب أمها . . . وبقيت الأم مع زوجها . . . نظر الرجل إلى زوجته وهمس بضعف :

– هيفاء أنا مُنْهَكٌ . . . الأمور سيئة والظرف غير ملائم

اقتربت منه وجلست على حافة كرسيّه . . . وأمسكت بالرأس المتعب بين كفيها الدافئتين . . . وقالت واثقة :

– أمورهم هم السيئة . . . ولكن أحوالنا ستكون بخير . . .

– هيفاء أنا لم أنم حتى الآن . . .

– وأنا لم أنم . . . أمضيت الليل ساهرة . . . وقد دعوت لك . . .

– هيفاء لقد قرأت كتاب ماجدة الليلة . . .

– وأنا كنت أدرس وأطوّر ثقافتي ومعلوماتي في دين الله . . .

عادت ماجدة ولكنها لمحت والديها يتناقشان فآثرت

الانسحاب بصمت إلى غرفتها . . . إذ لم يعد لأقراص المُسكن ما تفعله . . .

– هيفاء أنا يائس من جماعتنا . . . وما دمت أنت قد اتخذت قرارك هذا . . . بعد كل الذي قد كان . . . فما الفائدة ؟ ! . . بدأت اللامبالاة تنهشني . . . لم أعد أهتم . . .

– الإسلام شيء آخر يا أبا ماجدة . . . لقد كنا نحرث في البحر ونغربل الماء . . . ولكن الحق والنصر هما في جانب الإسلام . . . فها هم أولاء أحباؤنا المسلمون الذين يعيشون تحت الاحتلال الروسي والإرهاب الأحمر . . . إنك لتعلم جيداً أنهم ما بدلوا عقيدتهم ، رغم عشرات السنين من الدعاية المنظمة التي تمارس ضد الدين إذ لا يعقد مؤتمر حزبي ولا اجتماع حكومي إلاّ ويخرج وعلى رأس مقرراته تشديد مكافحة الدين . . . هذا فضلاً عن تحريم التعليم الديني حتى من قبل الأب لابنه . . . وها هو الواقع يعلمنا . . . فما الذي حصل ؟ . . أتستطيع أن تقول أن جذوة الإسلام انطفأت ؟ . . لا يا أبا ماجدة . . . أبداً . . . والعكس تماماً هو ما يحصل رغم أنف كل من كره ومكر ودبّر . . .

آمنتُ أن النصر للإسلام . . . آمنتُ أن المستقبل للإسلام . . لأنه دين الحق والعدل لم تضعه طبقة لتستغل طبقة . . . وما حابى أحداً على حساب أحد.. الناس والطبقات والأمم سواسية أمامه . . . فهو دين البشرية اللائق بكرامتها لأنه تشريع رب

العالمين مبدع كل شيء وهو الخبير بمصالح عبيده وحاجاتهم ...

– هيفاء لا تقس عليّ ... فقراءة كتاب لا تنهي مشاكلي ... فما زال لديّ بعض الـ ...

– أفهم ... أفهم ذلك تماماً ... والآن هيا إلى سريرك، نم الآن وسنبحث الأمر فيما بعد ، أما أنا فلديّ بعد المشاغل ويجب أن أهيىء ثياب ماجدة فاليوم الجمعة ...

أسدلت أم ماجدة ستائر غرفة النوم كيلا يزعج ضوء الصباح زوجها المرهق الذى ارتمى على سريره بملابس النوم ... وقبل أن تغادر أم ماجدة الغرفة رفع رأسه وقال وكأنه يريد الاطمئنان قبل أن ينام على أمر طالما أرقه خلال الفترة الأخيرة ..

– هيفاء لا تتركيني ... هيفاء أنا بحاجة إليك ...

– ثق أننا سنسير معاً في سبيل الحق ... والآن نوماً هانئاً ...

وعادت أم ماجدة تبحث عن ملاحظات زوجها التي لا بد أنه دوّنها كعادته أثناء قراءته كتاب ماجدة ... وجدتها .. قرأتها باهتمام ... ثم تمتمت لنفسها :

– كما توقعت تماماً ... هذه هي النقاط التي خمنت أنها ستستوقفه ...

ثم نهضت إلى كتبها الجديدة تهيء لزوجها – الذي

خبرته وخبرها طوال سنوات كثيرة ماضية — حلولاً للمسائل الفكرية التي تعترضه . . .

* * *

رولا هي الأخرى لم يغمض لها جفن في تلك الليلة ، ففظاظة فريد أحرقت بسمانها واغتالت آخر ما تشبثت به من الأمل الخادع . . . فقد أيقنت أخيراً أنه لن يتزوجها . . . يتزوجها ؟ ! . . . وهو الذي أسماها « الساقطة » ! ! . .

كاد رأسها ينفجر حقيقة ، واستولت عليها كآبة مخيمة ظللتها بسواد اليأس . . .

أحس أهلها جميعهم باضطرابها . . . ولكن ما جرؤ أحد منهم على الحديث معها . . . فهم يجهلون ما بها . . . وهي تصدهم . . . وتلقي كلماتها بعصبية . . . حتى إنها رفضت في ذلك اليوم تناول ولو لقمة من الطعام . . .

وها قد نام الجميع إلا أمها التي ظلت جالسة حائرة أمام باب الغرفة وهي تبكي وتخنق آهاتها . . .

تناوبت الهواجس على رولا . . . وسيطر على تفكيرها شيء واحد . . . رولا اضمحلت . . . رولا تحطمت . . . رولا تلاشت . . . وإن بقي شيء منها فيجب أن ينتهي بسرعة.. اليوم . . . في هذه الليلة . . .

كانت تنتقل باستمرار بين السرير والنافذة والمرآة . . .
وبين الحين والحين يقفز إلى مخيلتها مشهد من مشاهد المأساة
فيكاد يخنقها فتتمتم متحسرة . . . نزوة طارئة دمرت حياتي
وذلك الوغد اللعين . . . آه لو أستطيع أن . . . أن أقتله . . .
ولكنني أنا الحمقاء التي أسلمته نفسي . . . مئات الفتيات
في الجامعة . . . وعشرات الفتيات في الصف . . . وأنا من
بينهن التعيسة المخدوعة . . . آه . . . يا لهن من سعيدات . . .
نور وماجدة وصديقاتهما الكثيرات . . . لا بد أنهن ينمن
الآن آمنات مطمئنات إذ ليس لإحداهن تعاستي ومصيبتي . . .
ليتني لبيت دعوتهم وذهبت يومها إلى المسجد لما كان حصل
الذي حصل . . .

وانساقت رولا مع خيالاتها . . . فلو أنها ذهبت ذلك
اليوم إلى المسجد لكانت الآن واحدة من أولئك المؤمنات ،
ترفل بثياب سابغة من السكينة والأمل ، ولفات فريد مطمعه
منها ولتابعت دراستها ثم لأنشأت أسرة وادعة ترفرف عليها
الهناءة . ولربت أبناءها على الفضيلة كيلا تصطدم
بالصعوبات . . . ياه كم هي حياة رائعة . . . ياه كم كانت
ستكون الحياة رائعة عندها . . .

وعادت ففجعت بالواقع واكتشفت أنها ما زالت في
غرفتها تتخبط في حيرتها . . . فغشيتها سحابة سوداء شيطانية . . .
وتسارعت أنفاسها وقد جحظت عيناها . . . يجب أن أضع

حداً لتعاستي . . . نعم . . . فسأنتحر . . . يجب أن أنتهي . . .
لا حل سوى الانتحار . . .

وقفت أمام المرآة . . . ضغطت على رقبتها . . . وضغطت
. . . وضغطت . . . ولكنها انهارت . . . وعادت أنفاسها
المتثاقلة ترزح على صدرها بشماتة . . .

فهرعت إلى النافذة . . . فتحتها . . . نظرت إلى أرض
الشارع . . . لأقفز . . . أنا أستحق . . . أستحق الموت . . .
همت أن تقفز إلى الشارع . . . ولكن المسافة قصيرة . . . إذاً
من المستبعد أن تموت . . . بل ربما أصيبت ببعض الكسور
فقط . . . إذاً ، لتصرف النظر عن النافذة . . .

أدارت عينيها في الغرفة كلبوة حبيسة . . . تبحث عن
أداة ما تنتحر بها . . . وقعت يدها على المقص . . . حملقت
بجنون بالمقص وهي تهذي ... سأقتل نفسي ... هيه ... سأقطع
شراييني . . . ستخلصني أيها المقص الجميل من عاري . . .

وقفت أمام المرآة وأمسكت المقص بكلتي يديها وراحت
تقربه وتبعده من عنقها وهي تشجع نفسها لتضرب بقوة
فتنفذه في رقبتها . . . الآن . . . هذه المرة . . . هيا سأطعن
بكل قوتي فتنفذ أيها المقص الرائع بسرعة إلى عنقي . . .
وأموت فأرتاح . . . هيا . . . هذه المرة . . . هيه . . .

وفجأة وقع بصرها على عينيها المتعبتين ووجهها الذابل . . .

حدقت في المرآة ... أهذه هي رولا الجميلة !.. أنا أريد أن أقتل رولا ؟ ! .. لا ... لا ... لا ...

وانخرطت في بكاء مرير وألقت المقص من يدها ثم ارتمت على الأرض تندب نفسها وكرامتها ...

وشيئاً فشيئاً انزلق الجسم المتعب في نوم عميق وقد بدأت خيوط الفجر تبزغ ...

استولى القلق على أم سامر ، فقد سكنت الحركة في غرفة رولا ... أتراها نامت دون أن تطفيء النور ... أهو من إرهاق الدراسة ؟ .. انتظرت قليلاً دون أن تجرؤ على فتح الباب ثم فتحته حذرة ، فوجدت ابنتها نائمة قرب المرآة ولكنها لم تعر المقص المرمي جانباً بالاً ، رفعت ابنتها بصعوبة إلى سريرها ، دثرتها وأطفأت نور الغرفة ... ولم تطاوعها نفسها بالخروج وترك الفتاة وحيدة ... فأغلقت الباب بهدوء وجلست مقابل سرير ابنتها تتأملها مشفقة ، ثم لم تلبث هي الأخرى أن استجابت لنداء النوم القاهر ...

استفاقت رولا والسكون ما يزال يخيم على المدينة فما يزال الناس في أسرتهم ففوجئت بأمها غافية على كرسي مقابل سريرها ... أحست بحب لهذه الأم التي ما استأثرت بشيء لنفسها ، فهي تعطي وتعطي بلا حساب ، تحركت رولا لتغادر السرير فانتبهت الأم من نومها :

ـ رولا ... شُغلت عليك يا ابنتي ... ما بك يا حبيبتي ... أأنت مريضة ؟ ..

ومدت الأم يدها المعروقة ولمست جبين ابنتها التي أحست بدفء الحنان يسري في ذراتها ... فأمسكت بالكف الهرم وقبلته ثم رمت بنفسها إلى صدر أمها وقبعت ساكنة وقد أحاطت بذراعيها جذع أمها وأنفاسها تتردد صعوداً وهبوطاً ... ضمت الأم ابنتها وقد داخلها الكثير من الراحة ... فالفتاة بخير كما يبدو ... ومسحت رأس ابنتها قائلة :

ـ إنك غير طبيعية في الفترة الأخيرة يا ابنتي ... لم لا تصارحين أمك يا رولا ؟ ! ..

لم تجب الفتاة بل مرغت رأسها في صدر أمها وهي تزفر بعمق وكأنها تنفض عن كاهلها عبئاً طال عليها حملانه ...

ـ أنا أملك يا حبيبتي ... لا تؤلميني وتخفي عني مشكلاتك ...

ـ ماما هل تسامحيني إن كنت قد أسأت لك ؟ ..

ـ أسامحك ؟ ! .. الله يا ابنتي يغفر للناس معصيتهم له تبارك وتعالى ، أفلا أغفر أنا لابنتي ؟ .. سامحك الله ... وماذا فعلتِ لأسامحك ؟ ! .. غفر الله لنا جميعاً ...

رفعت رولا رأسها ... ووضعت كفيها على خدي

أمها وقالت :

– الله يغفر للناس معاصيهم ؟ ! .. الله ! ! ..

– نعم الله يا رولا ... يغفر كل الذنوب إلاّ الشرك ... أما كنت تعرفين ذلك ؟ ! ..

– وما يدريك يا أماه ؟ .. بالله عليك ... أحقاً ما تقولين ؟ ! ! ..

– إنك لا تقرئين القرآن ... ولو كنت تقرئينه لتذكرت قول الله تعالى ...

– ماما ماذا يقول الله ؟ .. قولي ... أتذكرين ما يقول؟.

– ما هذا السؤال ! ! . طبعاً أذكر ... يقول الله جلّ ذكره في القرآن الكريم :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ، انها ساءت مستقرَاً ومقاماً ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتّروا وكان بين ذلك قواماً ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ، ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله

غفوراً رحيماً، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً».

صدق الله العظيم

غمر الانشراح قلب رولا وعمتها البهجة ، وكأنها ليست هي التي كانت تفكر بالانتحار قبل ساعات ... وهبّت تقبل والدتها التي شدهت لانقلاب مزاج ابنتها المفاجىء ... ولكنه ما تتمناه على كل حال ... ثم قالت رولا :

— ياه ... تكاد الشمس تبزغ ... سأتوضأ ولنصلّ الفجر معاً ...

وأسرعت لتتوضأ تاركة أمها لحيرتها من هذا التحول الصاعق حتى لتحسب أنها تحلم ... توضأت الأم ... وأمّت ابنتها في صلاة الفجر ... ولفت انتباهها بعد أداء الصلاة مشهد المرآة وقد كتبت رولا عليها بخط عريض وأنيق ... قوله تعالى :

«إلاّ من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً» ...

لم تستطع أم سامر الذهاب في ذلك اليوم إلى مسجد النورسي بسبب زيارة بعض قريباتها لها ... ولكن عندما حان موعد الدرس ارتدت رولا ملابسها ودخلت إلى أبيها طالبة رضاه .. فرضي عليها وقد أعجبه مشهد غطاء رأس زوجته وقد ارتدته ابنته ... ودعته وهو يدعو الله لها أن ينيلها خيري الدنيا والآخرة ...

حثت رولا خطاها إلى المسجد وهي تمني النفس بتوبة من الله عليها ، وتعاهد ربها تبارك وتعالى في سرها أنها لن تعصيه أبداً وتسأله جلّ وعلا أن يتجاوز عن سيئاتها . . .

وكانت قد اقتربت من المسجد عندما استرعى انتباهها سيارة واقفة في ركن الساحة حيث تندر المارة في منطقة وارفة الأشجار مما يحجبها عن الأعين . . . أشاحت بوجهها فما لها ولهذا . . . ثم يجب أن تسرع فالدرس أوشك أن يبدأ . . . ولكن السيارة ! . . إنها سيارة فريد . . . ورغم ذلك ما كانت لتهتم ولكنها أبصرت فتاة غرّة بجانبه بجلسة غير طبيعية . . . أحست بمسؤوليتها إزاء تلك الفتاة . . . يجب أن تنقذها . . . اتجهت إلى السيارة وقد اندفعت الدماء إلى وجهها . . . أيها المجرم . . . يدك عنها . . . دعْها أيها السفاح . . . وجدتها الفتاة التي كانت تحاول الإفلات منه فرصة سانحة . . . إن نبهته للصوت الموجه إليه . . . فتركها ونظر شذراً إلى رولا التي كانت تركض صارخة باتجاه السيارة المتوارية في الظل . . . همس حاقداً :

– أنت أيضاً . . . ستفسدين حياتي أيتها العاهرة . . .

وأدار محرك السيارة وانطلق فاقداً أعصابه كالقذيفة . . .

ارتبكت رولا . . . خافت فالسيارة منطلقة نحوها . . . فقدت قدرتها على الهرب . . . وقد بدا أن فريد فقد رغبته في تحويل

وجهة السيارة . . . وتقلصت عضلات وجهه بشراسة . . .
صرخت الفتاة الجالسة بجانبه وغطت وجهها بكفيها مذعورة . .
وألقت رولا بحقيبتها أرضاً . . . فشلت في تحاشي السيارة . . .
فكل شيء يتم بسرعة رهيبة وبلا إمهال . . . وهي قد جمدها
الرعب . . . وكساها الشحوب . . . أهناك من يتصور هذا . . .
وبلمحة عين كانت السيارة مندفعة نحو عمود الكهرباء وقد
خلفت وراءها جسداً ينتفض انتفاضته الأخيرة . . . كانت جثة
رولا تنزف بغزارة وقد سحقت رأسها ببشاعة فظيعة . . .

واصطدمت السيارة بالعمود . . . أراد المجرم الفاقد
أعصابه وإنسانيته الهرب بالسيارة . . . ولكنها تسمرت
بالأرض ولم تستجب لمحاولاته اليائسة . . . ففتح الباب وركض
عبر الساحة يريد الهرب . . . ولكن سيارة الشرطة التي رأت
الحادث لاحقته.. مسرعة جهد ليراوغها ويبتعد عنها. . .ركض
وراوغ والسيارة مصرة طبعاً على إمساكه . . . وفجأة انزلقت
قدمه بالسائل اللزج الأحمر الذي كان يزحف على الأسفلت . . .
حاول أن يستعيد توازنه ولكن جسده خذله وخانته لياقته . . .
فارتطم بالأرض . . . كبح سائق سيارة الشرطة جماح سيارته
ليتفادى الجسد المنزلق والذي افترش الأرض بشكل غير متوقع
ولكنه فشل . . . وكانت صدمة قوية هشمت أضلاع فريد
وتركته جثة هامدة . . .

ما زالت الفتاة – التي لم يشعر أحد بوجودها حتى اللحظة –

في السيارة المتعطلة . . . كان وجهها شاحباً وقلبها يخفق بقوة أخافتها . . . أتراها ستموت هي الأخرى ؟ . . نظرت من النافذة . . . لا أحد . . . فانسلت بهدوء من السيارة..كانت الخدوش تزرع وجهها وذراعيها . . . ألقت نظرة على الفتاة المصبوغة بدم قان . . . استفاقت من ذهولها . . . فأطلقت ساقيها تركض . . . وتركض . . . وعواء سيارات الشرطة والإسعاف يدوي في أذنيها . . . ويطاردها . . . ركضت حتى تقطعت أنفاسها . . . ولكن منظر الشهيدة ذات غطاء الرأس كان قـــد استقر عميقاً . . . عميقاً . . . في أغوار نفسها . . .



محتويات الكتاب